الفصل الرابع

تنزيل الآيات على الواقع في تفسير ابن عثيمين

المبحث الأول

تنزيل الآيات على الواقع في مجال العقيدة

تمهيد:

إنّ العقيدة الإسلامية هي الأصل في الإسلام، وأحكام الشريعة الإسلامية كلها مبنية على هذا الأصل، وعلى قدر سلامة عقيدة الإنسان تكون استقامته وسعادته، فالعقيدة السليمة متى رسخت في الفرد استقام سلوكه في حياته، ومتى أظلت مجتمعًا إنسانيًا انضبط وارتقى إلى ذروة الكمال الإنساني[479]، وبعد استقراء تفسير ابن عثيمين في جانب العقيدة استطعت أن أعرض ذلك من خلال المطالب الآتية:

المطلب الأول: الولاء والبراء

الولاء والبراء: هما الصورة الفعلية للتطبيق الواقعي لهذه العقيدة، ولن تتحقق كلمة التوحيد في الأرض إلا بتحقيق الولاء لمن يستحق الولاء، والبراء ممن يجب البراء منه[480]، وقد نزّل ابن عثيمين بعض الآيات في تفسيره في قضية الولاء والبراء منها قول الله ﷻ: ﴿قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَىٰٓ

---

[479]. الميداني. عبد الرحمن حسن حنبكة. 2009. *العقيدة الإسلامية وأسسها*. دمشق: دار القلم. ط.14. ص.10.

[480]. القحطاني. محمد بن سعيد بن سالم. د. ت. *الولاء والبراء في الإسلام من مفاهيم عقيدة السلف*. المملكة العربية السعودية: دار طيبة. ص.11.

ءَآللَّهُ خَيۡرٌ أَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٥٩﴾﴾[481] فذكر أنّ إهلاك الله للأمم المستحقة للعذاب صفة كمال ينبغي أن يُحمد عليها، وهو موافق لما قاله الزمخشري عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْۚ وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾[482] "فَقُطِعَ دابِرُ الْقَوْمِ آخرهم لم يترك منهم أحد، قد استؤصلت شأفتهم[483] (وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ) إيذان بوجوب الحمد عند هلاك الظلمة وأنه من أجلّ النعم وأجزل القسم"[484].

وأنكر على بعض المسلمين الذين يتعاطفون مع الكفَّار عند هلاكهم، مبينًا أنّ في إهلاكهم مصلحة للإسلام والمسلمين، وهو نعمة من الله ﷻ، يجب أن نحمده عليها، ولا نترحّم عليهم ونرِقّ لهم[485]، وسبب هذا التعاطف منهم في رأيه هو فقدان الغيرة الدينية، فبعض المسلمين فقد الولاء والبراء، وبعضهم فقد البراء فقط، والكثير منهم في وقتنا لا يُبغِضون أحدًا؛ بل عندهم الولاء للجميع، وهذا خطأ وخطر[486].

وتأسف لحال بعض المسلمين اليوم؛ لما هان عليهم قضية الولاء والبراء، فأصبح الواحد منهم يصف النصراني بالأخ، ويقول: أخونا فلان، وينكر عليهم هذا القول، مستدلًا بقول الله ﷻ: ﴿قَدۡ كَانَتۡ لَكُمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذۡ قَالُواْ لِقَوۡمِهِمۡ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمۡ وَمِمَّا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ

---

[481]. القرآن. النمل 27: 59.

[482]. القرآن. الأنعام 6: 45.

[483]. الشَّأْفة: قَرحة تكون أسفل رِجل الإنسان، وفي خف البعير، أي اقتلع الله ماله كما تُسْتأصل الشأفة. السيوطي. عبد الرحمن بن أبي بكر. 1998. *المزهر في علوم اللغة وأنواعها*. بيروت: دار الكتب العلمية. ج.2. ص.232.

[484]. الزمخشري. أبو القاسم محمود بن عمرو. 1407هـ. *الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل*. بيروت: دار الكتاب العربي. ط.3. ج.2. ص.24.

[485]. نهانا الله ﷻ عن الاستغفار للمشركين بقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ﴿١١٣﴾﴾ [التوبة 9: 112]، فالله ﷻ قد حكم عليه أنه في النار.

[486]. العثيمين. 1436هـ. *تفسير القرآن الكريم (سورة النمل)*. المملكة العربية السعودية: مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية. ص. 336، 337.

كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾[487]، ومبيّنًا أنّ هذه الأسوة الحسنة تكون بالبراءة من الكافرين، وبُغضِهم، واعتقاد أنهم أعداء مهما زخرفوا لنا القول، ويجب الحذر منهم.

ومسألة وصف النصراني بالأخ فيها تفصيل؛ فإذا كان القائل يقصد أخوّة الدين فلا شك أنّ هذا لا يجوز، أما إذا كان يريد أخوة النسب أو القبيلة أو الإنسانية فهذا جائز، فقد ورد ذلك في عدد من الآيات، منها قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾﴾[488]، قال القرطبي: "أي ابن أبيهم وهي أخوة نسب لا أخوة دين. وقيل: هي أخوة المجانسة"[489]، ولعلّ ابن عثيمين أراد بقوله من يقصد أخوّة الدين؛ لأنّ المجتمع الذي كان يعيش فيه –المملكة العربية السعودية– كلهم يدينون بالإسلام، ولا يوجد بينهم أخوّة بالنسب مع الكفار.

ثم قال ﵀: "وهنا نوجّه الخطاب إلى ولاة الأمور وإلى عامة الناس بالتحذير من الكفار وولايتهم، وننصحهم بأن يتخذوهم أعداء حقيقيين كما هو الواقع، كذلك أيضًا الرعية يجب عليهم أن يبتعدوا عن الكفار"[490].

وينبغي أن يُعلم أنّ الولاء لا يعني عدم المعاملة بالحسنى، والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ

---

[487]. القرآن. الممتحنة 60: 4.

[488]. القرآن. الشعراء 26: 106.

[489]. القرطبي. 1964م. *الجامع لأحكام القرآن*. ج.13. ص. 119.

[490]. العثيمين. 1426هـ. *تفسير القرآن الكريم (سورة آل عمران)*. المملكة العربية السعودية: دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع. ص.288، 289.

ٱلۡمُقۡسِطِينَ ۝٨﴾[491]، قال الطبري: واختلف أهل التأويل في الذين عُنُوا بهذه الآية، فقال بعضهم: عُني بها: الذين كانوا آمنوا بمكة ولم يهاجروا، فأذِن الله للمؤمنين ببرّهم والإحسان إليهم، وقال آخرون: بل عُنِي بها من مشركي مكة من لم يقاتل المؤمنين، ولم يُخرجوهم من ديارهم، من جميع أصناف الملل والأديان أن تبرُّوهم وتصلوهم، وتقسطوا إليهم، ثم رجّح قول من قال: إنّ الله ﷻ عمّ بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ﴾[492] جميع من كان ذلك صفته، فلم يخصصْ به بعضًا دون بعض[493].

ومما سبق يمكن القول أنّ ما قاله ابن عثيمين بأنّ الرعية يجب عليهم أن يبتعدوا عن الكفار فيه نظر؛ فقد أجاز النبي ﷺ زيارتهم وعيادتهم إذا مرضوا، وقد أتى النبي ﷺ غلامًا من اليهود –وكان مريضًا– يعوده، فقعد عند رأسه وقال له: «أَسْلِم»، فنظر الغلام إلى أبيه، فقال له أبوه: أطع أبا القاسم، فأسلم الغلام، فقام النبي ﷺ فرِحًا مسرورًا وهو يقول: «الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْقَذَهُ مِنَ النَّارِ»[494].

وكان من هدي النبي ﷺ حسن الجوار لهم، والتعامل معهم، والحرص على دعوتهم، وسيرته خير شاهد على ذلك.

المطلب الثاني: التوكل على الله مع الأخذ بالأسباب

يظن بعض الناس أنّ التوكل ينافي الأخذ بالأسباب، وأنّ الأمور إذا كانت مُقدّرة فلا حاجة إلى

---

491. القرآن. الممتحنة 60: 8.

492. القرآن. الممتحنة 60: 8.

493. الطبري. محمد بن جرير. 2001م. *جامع البيان عن تأويل آي القرآن*. القاهرة: دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان. ج.23. ص.322-323.

494. البخاري. 1422هـ. *صحيح البخاري*. كتاب الجنائز. باب إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه. ج.2. ص.94. رقم الحديث: 1356.

الأسباب، وهذا فاسد[495]، والصحيح أنه "ليس في فعل الأسباب ما ينافي التوكل مع اعتماد القلب على خالق السبب، وليس التوكل بترك الأسباب"[496]، وهناك طائفة في المجتمع تظنّ عكس ذلك، فهي تعتمد على الأسباب اعتمادًا كليًا وهذا فاسد أيضًا، وقد تنبّه ابن عثيمين ﵀ لهذه الفئة من الناس، فأشار إلى أنّ بعض الناس يلجأ إلى الطبيب، ويعتمد على الدواء الذي هو سبب للشفاء، فناسب أن ينزّل قول الله ﷻ: ﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣﴾[497] لتنبيه هذه الفئة من الناس، فدعاهم إلى اللجوء إلى الله ﷻ وحده، والاعتماد عليه ثم الأخذ بالأسباب، مع اعتقاد أنّ هذا الدواء سبب من الأسباب، إذا حصل به الشفاء فالذي شفاه هو الله ﷻ، وهو الذي جعل هذا الدواء سببًا للشفاء، ولو شاء لجعله سببًا للهلاك[498].

وفي هذا التنزيل يربط ابن عثيمين بين التوكل على الله ﷻ والأخذ بالأسباب، ولا يرى أنّ هناك تعارضًا بينهما، وهو موافق لما جاء في حديث جعفر بن عمرو بن أمية، عن أبيه، قال: قال رجل للنبي ﷺ: أُرْسِلُ نَاقَتِي وَأَتَوَكَّلُ؟، قَالَ: «اعْقِلْهَا وَتَوَكَّلْ»[499]. ولا ينبغي للمرء أن يعتقد أنّ الأسباب تؤثّر بدون قدرة الله تعالى ومشيئته؛ بل يأخذ بالأسباب ويعلم أنّ الأمر كله لله.

ومجتمعنا اليوم بحاجة إلى هذا التنزيل لأنّ بعض مَن عندهم جهل في العقيدة يعتمدون على الأسباب، سواء في مسألة التداوي أو الرزق أو غير ذلك، وهذا نابع عن ضعف التوكل على الله ﷻ، ويقينهم بأنه

---

495. ابن أبي العز. صدر الدين محمد بن علاء الدين الحنفي. 1418هـ. *شرح العقيدة الطحاوية*. المملكة العربية السعودية: وزارة الشؤون الإسلامية، والأوقاف والدعوة. ص.245.

496. الحكمي. حافظ بن أحمد بن علي. 1990. *معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول*. الدمام: دار ابن القيم. ج.3. ص.988.

497. القرآن. الأعلى 87: 3.

498. العثيمين. 2003م. *تفسير القرآن الكريم (جزء عم)*. المملكة العربية السعودية: دار الثريا للنشر. ط.3. ص.166.

499. ابن حبان. محمد بن حبان بن أحمد. 1993. *صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان*. بيروت: مؤسسة الرسالة. ط.2. ج.2. ص.510. رقم الحديث: 713. قال الألباني: حسن لغيره.

النافع والضارّ وبيده أمر كل شيء سبحانه.

المطلب الثالث: الأمور التي تخالف العقيدة

شهدت العصور الأخيرة من حياة المسلمين كثيراً من الأمور المحدَثة في العقيدة، بسبب ضعف الإيمان عند بعضهم، وانتشار الشبهات عبر وسائل التواصل المختلفة، فأصبحت حاجة المجتمع شديدة إلى وجود علماء ربانيّين، يبيّنون للناس عقيدتهم، ويدفعون تلك الشبهات، وقد عاصر ابن عثيمين مثل هذه الأمور، فتصدّى لبعض تلك المستجدات، وكشَف الزيف عنها، وظهر ذلك جليًا في تفسيره، ومنها:

1- الحكم بغير ما أنزل الله

إنّ من مقتضى الإيمان بالله تعالى وعبادته: الخضوع لحكمه، والرضا بشرعه، والرجوع إلى كتابه وسنة رسوله ﷺ عند الاختلاف في الأقوال، وفي الأصول وفي الخصومات وفي الدماء والأموال وسائر الحقوق[500]، ومسألة الحكم بغير ما أنزل الله من المسائل المهمة التي تحتاج إلى علماء ودعاة يبيّنون للناس خطر الإعراض عن حكم الله ﷻ، والتحاكم إلى غيره من القوانين الوضعية، وقد أنكر ابن عثيمين ﷺ على من يحكم بغير ما أنزل الله؛ فقال: "كل حكم مخالف لحكم الله فهو حكم جاهلي، وبناء على ذلك يصحّ أن نصف الأحكام المخالفة لحكم الله -في وقتنا الحاضر- بجاهلية القرن الخامس عشر، وقلنا الخامس عشر: لأننا نعتمد التاريخ الهجري دون غيره"[501].

وعند تفسيره لقول الله ﷻ: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ

---

[500] الفوزان. صالح بن فوزان بن عبد الله. 1423هـ. *كتاب التوحيد*. المملكة العربية السعودية: وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد. ط.4. ص.63.

[501] العثيمين. 1435هـ. *تفسير القرآن الكريم (سورة المائدة)*. المملكة العربية السعودية: دار ابن الجوزي. ج.1. ص.488.

﴿٤٤﴾[502] ذكر أنّ هذه الآية اختلف العلماء بالمراد فيها؛ فهل المراد بذلك اليهود خاصة أو أنها عامة؟ ورجّح بأنها عامة، ولكنّ هذا الترجيح مخالف لبعض أئمة التفسير، كالإمام الطبري؛ حيث ذكر الخلاف الحاصل في الآية فقال: وقد اختلف أهل التأويل في تأويل الكفر في هذا الموضع، فقال بعضهم من أنه عنى به اليهود الذين حَرَّفوا كتاب الله وبدَّلوا حكمه، وقال بعضهم: عنى بالكافرين: أهل الإسلام، وبالظالمين: اليهود، وبالفاسقين: النصارى، ثم رجّح أنها في اليهود فقال: "وأولى هذه الأقوال عندي بالصواب، قولُ من قال: نزلت هذه الآيات في كفّار أهل الكتاب، لأنّ ما قبلها وما بعدها من الآيات ففيهم نزلت، وهم المعنيُّون بها، وهذه الآيات سياقُ الخبر عنهم، فكونُها خبرًا عنهم أولى"[503].

وقد ذكر الماوردي خلاصة الخلاف في الآيات الثلاث في سورة المائدة التي ذُكِر فيها الحكم بغير ما أنزل الله فقال: "وفي اختلاف هذه الآي الثلاث أربعة أقاويل:

أحدها: أنها واردة في اليهود دون المسلمين؛ وهذا قول ابن مسعود، وحذيفة، والبراء، وعكرمة.

الثاني: أنها نزلت في أهل الكتاب وحكمها عام في جميع الناس؛ وهذا قول الحسن، وإبراهيم.

والثالث: أنه أراد بالكافرين أهل الإسلام، وبالظالمين اليهود، وبالفاسقين النصارى، وهذا قول الشعبي.

والرابع: أن من لم يحكم بما أنزل الله جاحدًا به فهو كافر، ومن لم يحكم مقرًا به فهو ظالم فاسق، وهذا قول ابن عباس"[504].

ولا بدّ من التفريق بين من يحكم بغير ما أنزل الله كفرًا وجحودًا به، أو يحكم به لأنه يرى أنّ حكمه

---

[502]. القرآن. المائدة 5: 44.

[503]. الطبري. 2001م. *جامع البيان عن تأويل آي القرآن*. ج.10. ص. 358.

[504]. الماوردي. أبو الحسن علي بن محمد بن محمد. د. ت. *النكت والعيون*. بيروت: دار الكتب العلمية. ج.2. ص.43.

هو الأفضل والأنسب، أو يستحلّ ذلك، وبين من يحكم بغير ما أنزل الله اتباعًا لهواه، مع اعتقاده بوجوب الحكم بما أنزل الله، فلا شك بأنّ من جحد شيئًا أمر الله به أو استحل حرامًا فهو كافر، أما من اتبع هواه وهو يعلم أنّه مُذنب فهو عاصٍ[505].

ويظهر من تنزيل ابن عثيمين السابق استخدامه لقاعدة من قواعد التفسير في تنزيله للآيات على الواقع؛ وهي أنّ (العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب)، فاختار في الآية السابقة أنّ اللفظ فيها عام، ورأيه في ذلك وافق عددًا من المفسرين السابقين[506]، لكن القول بالتفصيل هو الأولى؛ وهو ما ذكره ابن أبي العز في شرح الطحاوية.

2- الاشتراكية

من التشريعات التي وضعها البشر (الاشتراكية)[507] التي قامت في القرن التاسع عشر الميلادي، وهي أقبح مذهب عرفته البشرية وأشدها شرًّا على الإطلاق؛ فقد ذهب ضحيَّة تطبيقها مئات الملايين قتلًا وجوعًا وتشريدًا في أوروبا البعيدة عن أراضي المسلمين وعن عقائدهم وتاريخ حضارتهم، وبدأت الاشتراكية تغزو بلاد المسلمين في مصر وسوريا ولبنان[508]، وقد أدرك خطرها ابن عثيمين ﵀ وألّف في ذلك كتابًا،

---

505. ابن أبي العز. محمد بن علاء الدين الحنفي. 1418 هـ. *شرح العقيدة الطحاوية*. ص.304- 305.

506. الشوكاني. *فتح القدير*. 1414هـ. ج.2. ص. 50، وانظر: أبو حيان. 1420هـ. *البحر المحيط في التفسير*. ج.4. ص. 269.

507. الاشتراكية: اسم يطلق على كل ما صدر عن النزعة الجماعية، وتقوم فلسفة الاشتراكية على تأميم جميع وسائل الإنتاج ووضعها تحت سيطرة الدولة وتصرفها؛ فالدولة لدى أصحاب هذا الرأي هي أساس التنظيم الاجتماعي، ومن ثم يجب أن تسيطر على جميع الموارد الاقتصادية، وتتولى تسيير دقة النشاط الاقتصادي، انظر: عبده. عيسى.1974. *الاقتصاد الإسلامي مدخل ومنهاج*. د. م. ص.208، وانظر: شرننة. فرحات صالح.1981. الاشتراكية. *مجلة دراسات في الاقتصاد والتجارة*. ليبيا: جامعة بنغازي. مجلد. 17. عدد (2). ص.14.

508. عواجي. غالب بن علي. 2006م. *المذاهب الفكرية المعاصرة ودورها في المجتمعات وموقف المسلم منها*. جدة: المكتبة العصرية الذهبية. ج.2. ص.1019- 1044.

ذكر فيه الأدلة على بطلانها وفسادها ومناقضتها لشريعة الإسلام[509]، وعند تفسيره لقول الله ﷻ: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾[510]، ذكر أنّ هناك دعوة ظهرت قبل سنوات تدعو إلى الاشتراكية، بسبب تأثير الشيوعيين على بعض البلاد العربية، فظهرت دعوى الاشتراكية وتأميم الممتلكات، وحاول بعض العلماء تأييدهم بتحريفهم لمعاني الآيات، مثل قول الله ﷻ: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾﴾[511]، فزعموا أنّ معناها: أنتم والعبيد الذين تملكونهم سواء، فأنكر قولهم، وأخذ يبيّن بطلانه، ويذكر المعنى الصحيح للآية؛ وهو أنّ الله تعالى ضرب لنا مثلًا من أنفسنا: فهل يرضى السيد أن يشاركه عبده في حقوقه وخصائصه؟ والجواب: لا، وهذا لا يمكن أن نُقِرّ به، فكذلك الله ﷻ لا يرضى أن يكون أحد من خلقه شريكًا له، كما أننا لا نرضى أن يكون عبيدنا شركاء لنا في الرزق، وسمّى الذين قالوا ذلك بعلماء الدولة، الذين يرون ما تريده الدولة، فيصرفون الناس إليه، وصرّح بأنّ العلماء الربانيين لا يمكن أن يسلكوا هذا المسلك[512].

وكلامه السابق يوافق ما قاله المفسرون في التفسير الصحيح للآية[513]، بعد أن حاول بعض المؤيدين

---

509. العثيمين. 2009م. *الأدلة على بطلان الإشتراكية*. القصيم: مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية. ص.18.

510. القرآن. المائدة 5: 44.

511. القرآن. الروم 30: 28.

512. العثيمين. 1435هـ. تفسير القرآن الكريم (سورة المائدة). ج.1. ص.331-332.

513. انظر: الطبري. 2001م. *جامع البيان عن تأويل آي القرآن*. ج.18. ص.489. والبغوي. 1420 هـ. *معالم التنزيل في تفسير القرآن*. ج.3. ص.576. وابن جزي. أبو القاسم، محمد بن أحمد. 1416. *التسهيل لعلوم التنزيل*. بيروت: شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم. ج.2. ص.132.

لمبدأ الاشتراكية تفسيرها بتفسير يوافق هواهم، وقاموا بترديد الشعارات التي تخدم أهواءهم، وما زعموه باطل لا محالة؛ فالإسلام أعطى لكل إنسان حرية التملك الخاصة لماله، وفضّل بعضهم على بعض في الرزق، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلرِّزۡقِۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُواْ بِرَآدِّي رِزۡقِهِمۡ عَلَىٰ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَهُمۡ فِيهِ سَوَآءٌۚ أَفَبِنِعۡمَةِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ٧١﴾[514]، وفي هذه الآية الكريمة ردّ على عليهم، وإبطال لمذهب الإشتراكية القائل: بأنه لا يكون أحد أفضل من أحد في الرزق[515]، ولله في تفضيل بعضهم على بعض في الرزق حكمة، ذكرها في قوله سبحانه: ﴿نَحۡنُ قَسَمۡنَا بَيۡنَهُم مَّعِيشَتَهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَرَفَعۡنَا بَعۡضَهُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ لِّيَتَّخِذَ بَعۡضُهُم بَعۡضٗا سُخۡرِيّٗاۗ﴾[516].

3- خطأ بعض الألفاظ في العقيدة

إنّ الأدلة في حفظ اللسان كثيرة، منها حديث رسول الله ﷺ: «إِنَّ العَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ، لاَ يُلْقِي لَهَا بَالًا، يَرْفَعُهُ اللَّهُ بِهَا دَرَجَاتٍ، وَإِنَّ العَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ، لاَ يُلْقِي لَهَا بَالًا، يَهْوِي بِهَا فِي جَهَنَّمَ»[517]، أي يتكلم بها في غفلة، أو لا يلتفت إليها خاطرُه، ولا يعتدّ بها، وهي عند الله عظيم[518].

---

514. القرآن. النحل 16: 71.

515. الشنقيطي. محمد الأمين بن محمد المختار. 1995. *أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن*. بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع. ج.2. ص.411.

516. القرآن. الزخرف 43: 32.

517. البخاري. 1422هـ. *صحيح البخاري*. كتاب الرقاق. باب حفظ اللسان. ج.8. ص.101. رقم الحديث: 6478. وقد ورد بمعناه في مسلم.

518. الشافعي. شمس الدين البِرْماوي، أبو عبد الله محمد. 2012. *اللامع الصبيح بشرح الجامع الصحيح*. سوريا: دار النوادر. ج.15. ص. 509.

وقد انتشرت بعض الألفاظ المخالفة للعقيدة في عصر ابن عثيمين منها عبارة: (مثواه الأخير)، فنبّه على خطر هذه العبارة عند تفسيره لقول الله ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۗ﴾[519]، وبيّن أنّ اليوم الآخر هو يوم القيامة، وسُمي باليوم الآخر لأنه لا يوم بعده، ويقول: "إنّ القول عن الميت (إنه حمل إلى مثواه الأخير) كلمة خطيرة جدًا، مضمونها إنكار البعث؛ لأنه إذا كان القبر مثواه الأخير فمعناه أنه ليس بعده بعث، وهذه الكلمة يكثر ذكرها في الجرائد والمجلات، وعلى ألسنة من يدّعون أنهم مثقفون، لكنها في الواقع غير صحيحة إلا لإنسان لا يؤمن بالبعث"[520]، وأضاف عند تفسيره لسورة التكاثر: أنّ هذه العبارة موروثة عن الملحدين الذين لا يؤمنون بالبعث، وأنّ المثوى الأخير هو الجنة أو النار يوم القيامة[521].

لكنّ ابن باز ﷺ خالفه في ذلك، فعندما سُئل عن الحكم فيمن قال ذلك، قال: "لا أعلم في هذا بأسًا؛ لأنه مثواه الأخير بالنسبة للدنيا، وهي كلمة عامية؛ أما المثوى الأخير الحقيقي فهو الجنة للمتقين والنار للكافرين"[522].

وعبارة (مثواه الأخير) مُتداولة كثيرًا في المجتمع، ولعلّ ابن عثيمين أنكرها لأنه نظر إليها من زاوية واحدة فقط، وهي ما ذكره في التنزيل، أما ابن باز نظر إليها من زاوية أخرى، ولا ينبغي أن نضيّق على الناس في مثل ذلك، ونأخذ بما قاله ابن باز ﷺ خاصّة أنّ الناس يتداولونها دون قصد منهم بإنكار البعث.

ونبّه ابن عثيمين كذلك على عبارة انتشرت في عصره وهي قولهم: (إنه على ما يشاء قدير) وأشار إلى

---

[519]. القرآن. النساء 4: 38.

[520]. العثيمين. 1435هـ. *تفسير القرآن الكريم (سورة النساء)*. ج.1. ص.322.

[521]. العثيمين. 2003م. تفسير القرآن الكريم (جزء عم). ص.307.

[522]. ابن باز. عبد العزيز بن عبد الله. د. ت. *مجموع فتاوى العلامة عبد العزيز بن باز*. د. م. ج.13. ص.409.

خطئها عند تفسيره لقول الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ۝٤٥﴾[523] وذكر أنّ الخطأ في هذه العبارة هو تقييد القدرة بالمشيئة؛ وإذا قُيّدت القدرة بالمشيئة حصل بذلك قصور، فتكون قدرته على ما يشاء دون الذي لا يشاء، مع أنّ الله قادر على ما يشاء وعلى ما لا يشاء، لكن ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن.

وأمرنا بأن ننهى كل من قال هذه العبارة، ونبيّن له أنّ الواجب علينا إطلاق صفة القدرة لله كما أطلقها الله ﷻ لنفسه[524].

والمنع من هذه العبارة إذا كان مراد قائلها حصر قدرة الله تعالى في المشيئة أي فيما يشاء ويرضى، كما هو عقيدة بعض الفرق المنحرفة مثل القدرية الذين أنكروا عموم القدرة[525]، لأنّ "القادر هو الذي إن شاء فعل، وإن شاء لم يفعل"[526] أما إن كان قائلها قصد إطلاق القدرة فيما يشاؤه تعالى وفيما لا يشاؤه، ومن ذلك الحادثة الكائنة، كمشيئته في إحياء الموتى مثلًا، فلا حرج في ذلك، وقد ورد في الكتاب والسنة ما يدلّ على ذلك؛ يقول سبحانه: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمۡعِهِمۡ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٞ ۝٢٩﴾[527]، وفي السنة: «... وَلَكِنِّي عَلَى مَا أَشَاءُ قَادِرٌ»[528].

ومما نبّه ابن عثيمين عليه كذلك: الدعاء بصفات الله ﷻ، كما لو قال: (يا رحمة الله ارحميني، أو يا قدرة الله أنقذيني)؛ لأنّ من قال ذلك فقد جعل مع الله إلهًا آخر وهذا كُفر، وذكر ذلك بعد تفسيره لقول الله ﷻ:

---

523. القرآن. النور 24: 45.

524. العثيمين. 1436هـ. *تفسير القرآن الكريم (سورة النساء)*. ج.2. ص.307-308.

525. العمراني. أبو الحسين يحيى بن أبي الخير. 1999. *الانتصار في الرد على المعتزلة القدرية الأشرار*. الرياض: أضواء السلف. ج.1. ص.64.

526. السفاريني. شمس الدين، أبو العون محمد. 1982. *لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية لشرح الدرة المضية في عقد الفرقة المرضية*. دمشق: مؤسسة الخافقين ومكتبتها. ط.2. ج.1. ص.151.

527. القرآن. الشورى 42: 29.

528. مسلم. د. ت. *صحيح مسلم*. كتاب الإيمان. باب آخر أهل النار خروجاً. ج.1. ص.174. رقم الحديث: 310.

﴿لَا تَسۡجُدُواْ لِلشَّمۡسِ وَلَا لِلۡقَمَرِ وَٱسۡجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ﴿٣٧﴾﴾[529] وسبب تحريم الدعاء بهذه الطريقة: أنّ قائله يعتقد أنّ الصفة شيء مستقل، ولا يصح لنا أن ندعو صفات الله[530]، وما ذكره هنا يوافق ما قاله شيخ الإسلام ابن تيمية ﵀ "أنّ مسألة الله بأسمائه وصفاته وكلماته جائز مشروع كما جاءت به الأحاديث، وأما دعاء صفاته وكلماته فكفر باتفاق المسلمين"[531].

وينبغي أن ننتبه إلى الفرق بين دعاء الصفة نفسها، وبين الدعاء بالصفات الذي هو من باب التوسل إلى الله بأسمائه وصفاته، وهذا لا بأس به، فقد كان رسول الله ﷺ إذا نزل به هم أو غم قال: «يَا حَيُّ، يَا قَيُّومُ، بِرَحْمَتِكَ أَسْتَغِيثُ»[532].

المطلب الرابع: البدعة

بعد قراءة تفسير ابن عثيمين للبحث عن تنزيله للآيات في البدعة، لم أجد غير تحذيره من بدعة قراءة سورة الفاتحة؛ حيث ذكر بعد التعريف بها أنّ بعض الناس اليوم ابتدع في هذه السورة بدعة، فصاروا يبتدئون بها الخُطَب، ويقرؤونها عند بعض المناسبات، ويختمون بها الدعاء، ويبيّن خطأ ذلك؛ فالعبادات مبناها على التوقيف والاتباع[533].

خلاصة المبحث:

---

[529] القرآن. فصلت 41: 38.

[530] العثيمين. 1426هـ. *شرح العقيدة السفارينية -الدرة المضية في عقد أهل الفرقة المرضية-*. الرياض: دار الوطن للنشر. ص.281.

[531] ابن تيمية. أحمد. 1426 هـ. *الاستغاثة في الرد على البكري*. الرياض: مكتبة دار المنهاج للنشر والتوزيع. ص.114. وأصل الكتاب: رسالة ماجستير -قسم الثقافة الإسلامية بكلية التربية بجامعة الملك سعود- للدكتور: عبد الله بن دجين السهلي.

[532] الحاكم النيسابوري. أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله. 1990. *المستدرك على الصحيحين*. بيروت: دار الكتب العلمية. ج.1. ص. 689. رقم الحديث: 1875. وصححه إسناده. وصححه الألباني في صحيح الجامع. رقم الحديث: 5820.

[533] العثيمين. 2003م. تفسير القرآن الكريم (جزء عم). ص.7.

1- اهتمام ابن عثيمين بقضايا العقيدة في تفسيره.

2- استشهاده بواقع الحال عند تنزيله لآيات العقيدة على الواقع.

3- أغلب التنزيلات التي عني فيها بتنزيل الآيات على الواقع كانت في الردّ على مخالفة الواقع لمعنى الآية.

4- استخدامه لقاعدة مهمة من قواعد التفسير وهي: (العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب) في تنزيل الآيات على الواقع.

UNIVERSITI SAINS ISLAM MALAYSIA
جامعة العلوم الإسلامية الماليزية
ISLAMIC SCIENCE UNIVERSITY OF MALAYSIA

المبحث الثاني

تنزيل الآيات على الواقع في مجال الدعوة

وقف ابن عثيمين عند الآيات المتعلقة بالدعوة إلى الله في تفسيره، وربطها بواقع الدعاة، وسيأتي بيان ذلك في المطالب الآتية:

المطلب الأول: إخلاص النية في الدعوة

لاحظ ابن عثيمين أنّ بعض الدعاة يعِظون الناس في المساجد، فإذا انتهوا مدّوا أيديهم يسألون الناس، فناسب أن ينزّل قول الله ﷻ: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۝١٠٧ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝١٠٨ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝١٠٩﴾[534] على هذا الواقع، وأنكر هذا التصرف منهم، وبيّن أنّ حالهم خلاف حال الرسل، فإذا كان الناس قد تأثروا بموعظتهم ثم شاهدوا مدّ أيديهم، ذهب كلّ ما في نفوسهم من التأثّر؛ لأنّ الإنسان إذا طلب الدنيا بما يُراد به الآخرة فسد أمره، واستشهد على ذلك بقول الله ﷻ: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ۝١٥ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝١٦﴾[535]، ثمّ استنبط من هذه الآية وجوب إخلاص النية لمن قام مقام الرسل بالدعوة إلى الله ﷻ[536].

---

[534]. القرآن. الشعراء 26: 107-109.

[535]. القرآن. هود 11: 15- 16.

[536]. العثيمين. 1435هـ. *تفسير القرآن الكريم (سورة الشعراء)*. ص.192.

وابن عثيمين ﵀ لا يُؤيّد أخذ الأجرة على الدعوة إطلاقًا، حتى وإن لم يسألها الداعي من الناس، وقد ذكر ذلك عند تفسيره لقول الله ﷻ: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾﴾[537]، ونبّه الدعاة إلى الترفع عما في أيدي الناس من الأموال حتى وإن أُعطيَ لهم؛ لأنه مُخالف لطريق الرسل، ولوجوب الدعوة على الإنسان[538].

وأكّد على هذا المعنى بقوله: "فإخلاص الداعي في دعوته لله تعالى أمر مهم بالنسبة لنجاحه فيها، وثوابه عليها، أما إن قصد مراءاة الناس بذلك، أو أراد شيئًا من الدنيا: مالًا أو جاهًا أو رئاسة، فعمله حابط ونفعه قليل"[539].

ولعلّ السبب الذي دفع ابن عثيمين إلى هذا القول: أنّ البيئة التي كان يعيش فيها تتمتّع برغد العيش فلا يحتاج الداعية إلى المال كما يحتاجه بعض الدعاة في الدول الأخرى، الذين فرّغوا أنفسهم للدعوة إلى الله، فيأخذون أجرة على ذلك، ويكون أخذهم للمال للاستعانة به على طاعة الله، أما الغرض الأصلي فهو نشر العلم بين الناس ورفع الجهل عنهم، وهذا لا بأس به، ويدلّ على ذلك حديث ابن عباس أَنَّ نَفَرًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ مَرُّوا بِمَاءٍ، فِيهِمْ لَدِيغٌ أَوْ سَلِيمٌ، فَعَرَضَ لَهُمْ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الماءِ، فَقَالَ: هَلْ فِيكُمْ مِنْ رَاقٍ، إِنَّ فِي الماءِ رَجُلًا لَدِيغًا أَوْ سَلِيمًا، فَانْطَلَقَ رَجُلٌ مِنْهُمْ، فَقَرَأَ بِفَاتِحَةِ الكِتَابِ عَلَى شَاءٍ، فَبَرَأَ، فَجَاءَ بِالشَّاءِ إِلَى أَصْحَابِهِ، فَكَرِهُوا ذَلِكَ وَقَالُوا: أَخَذْتَ عَلَى كِتَابِ اللَّهِ أَجْرًا، حَتَّى قَدِمُوا المدِينَةَ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَخَذَ عَلَى كِتَابِ اللَّهِ أَجْرًا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ أَحَقَّ مَا أَخَذْتُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا كِتَابُ اللَّهِ»[540] وفيه

---

[537]. القرآن. يس 36: 21.

[538]. العثيمين. 1424هـ. *تفسير القرآن الكريم (سورة يس)*. المملكة العربية السعودية: دار الثريا للنشر والتوزيع. ص. 77-78.

[539]. العثيمين. 1428هـ. *رسالة في الدعوة إلى الله*. الرياض: دار الوطن للنشر. ص.24.

[540]. البخاري. 1422هـ. *صحيح البخاري*. كتاب الطب. باب الشرط في الرقية بقطيع من الغنم. ج.7. ص. 131. رقم الحديث: 5737.

دليل على جواز أخذ الأجرة على الدعوة قياسًا على الرقية.

وذكر ابن القيم جواز أخذ الداعية الأجرة من بيت مال المسلمين إذا كان محتاجًا إليه[541].

وقوله: بأنّ الناس إذا كانوا قد تأثروا بموعظتهم ثم شاهدوا مدّ أيديهم، ذهب كل ما في نفوسهم من التأثّر فيه نظر؛ فقد يتأثّر الشخص من الكلام ويقع في قلبه دون علمه بقصد الداعية من دعوته وهل كان مخلصًا فيها أو غير مخلص.

وهناك فرق بين مَن يكون قصده الآخرة، وأخذ المال هو وسيلة فقط، وبين من يكون قصده الدنيا فقط فيسترزق بالدين، فقد أجاز بعض العلماء أخذ الأجرة على الدعوة إلى الله، منهم الإمام الشافعي، حيث يقول: "ولا بأس بالإجارة على الحج وعلى العمرة وعلى الخير كله، وهي على عمل الخير أجْوَز منها على ما ليس بخير ولا برّ من المباح"[542].

ولكل فريق من العلماء أدلته ووجهة نظره، والكلام في ذلك يطول –ليس محل ذكره هنا– وقد أحسن الشافعي في رأيه، وهو مخالف لما قال ابن عثيمين ﷺ.

المطلب الثاني: الدعوة إلى الله على بصيرة

الدعوة إلى الله يجب أن تكون على بصيرة وعلم، قال تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ﴾[543]، "والبصيرة: هي المعرفة التي يميز بها بين الحق والباطل"[544]، وقد وُجد في هذا العصر مَن يدعو إلى الله بغير علم، ويُفتي الناس بغير علم أيضًا، مما يجعله يحل الحرام، ويحرم الحلال،

---

[541]. ابن القيم. 1423هـ. *إعلام الموقعين عن رب العالمين* ج.6. ص.159.

[542]. الشافعي. أبو عبد الله محمد بن إدريس بن العباس. 1990م. *الأم*. بيروت: دار المعرفة. ج.2. ص.140.

[543]. القرآن. يوسف 12: 108.

[544]. البغوي. 1420 هـ. *معالم التنزيل في تفسير القرآن*. ج.2. ص.518.

ويدعوا الناس إلى ما لم يأمر به الشرع، وقد سُئل ابن عثيمين عن ذلك فأجاب أنّ هذا سَفَه في العقل، وضلالٌ في الدين، وأنه يجب على الشخص ألا يفتي إلا بما علم أنه من شرع الله ﷻ، أو غلب على ظنه أنه من شرع الله بعد الاجتهاد التام[545].

وانتقد الذين يدعون إلى الله بغير علم بيّن راسخ، ممّن يتشددون في الأمور، فيحرّمون ما أحل الله، أو يُوجبون ما لم يوجبه الله[546]، ووجّه نصيحة إلى طلاب العلم قائلًا: "وأنا أريد منكم أن تكونوا علماء ربانيين[547]، دعاة للخير مهما استطعتم"[548].

وبيّن لنا عند تفسيره لقول الله ﷻ: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٢٠﴾[549]، أنه يجب على من دعا إلى الله أن يكون على علم وعلى بصيرة؛ لأنّ هذا هو وصف الرسل عليهم الصلاة والسلام، فهم يدعون الناس على هدى، وأما مَن يدعو الناس على غير هدى وعلم فإنه يُفسد أكثر مما يُصلح؛ لأنّ الذي يدعو على غير علم ربما يجعل الشيء الحرام حلالًا، والحلال حرامًا وهو لا يدري، فيحصل بذلك فساد في الدين والعقيدة[550].

ولا يُشترط في الداعية أن يكون لديه إلمام بكل المسائل الشرعية؛ لكن يدعو إلى الله بما عنده من

---

545. العثيمين. د. ت. *فتاوى نور على الدرب*. (إذاعة). المملكة العربية السعودية: إذاعة القرآن الكريم. شريط رقم 352.

546. العثيمين. 1436هـ. *تفسير القرآن الكريم (سورة النمل)*. ص.302.

547. يُطلق على العالم أنه رباني إذا كان وثيق الصلة بالله ﷻ عالمًا بدينه، وكتابه معلمًا له. انظر: مناهج جامعة المدينة العالمية. د. ت. *أصول الدعوة*. ماليزيا: جامعة المدينة العالمية. ص. 411.

548. العثيمين. 1436هـ. *تفسير القرآن الكريم (سورة سبأ)*. ص. 287.

549. القرآن. يس 36: 20.

550. العثيمين. 1424هـ. *تفسير القرآن الكريم (سورة يس)*. ص.79.

علم فقط، فقد جاء في الحديث أنّ النبي ﷺ، قال: «بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً»[551] "أي انقلوا عني ما أمكنكم ليتصل بالأمة نقل ما جئت به ولو كان الإنسان إنما يبلغه مني أو عني آية واحدة من القرآن"[552]، وإذا كان لا يعلم فلا حرج في أن يقول للناس ليس لي علم بذلك؛ لأنّ القول على الله بغير علم محرّم، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾[553]، ويكثر مثل هذا في وسائل التواصل الاجتماعي؛ حيث يتناقل الناس الرسائل دون التأكد من صحتها، وينبغي على المرء التحري في مثل ذلك.

المطلب الثالث: نشر العلم في كل زمان ومكان

اعتاد الناس في عصر ابن عثيمين على الاجتماع في المجالس، وقد يكون هذا المجلس عامًا لإقامة المناسبات، أو مجلسًا خاصًا لصاحب البيت، يجتمع فيه مع أهله وأصدقائه، يقضون فيه أوقاتًا طويلة، وربما خلت هذه المجالس من التذكير والفوائد الدينية، فلاحظ ابن عثيمين ﵀ هذه الظاهرة، وأراد أن يغتنم فرصة اجتماع الناس في هذه المجالس، فنبّه الدعاة على ذلك عند تفسيره لقول الله ﷻ: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾[554]، حيث وجّه نصيحة لهم بالحرص على نشر العلم في كل مجال يمكنهم الحديث فيه بالدعوة إلى الله، مثل المجالس الخاصة التي يُدعى إليها إلى وليمة مثلًا، أو غيرها من

---

[551]. البخاري. 1422هـ. *صحيح البخاري*. كتاب: أحاديث الأنبياء. باب ما ذكر عن بني إسرائيل. ج.4. ص. 170. رقم الحديث: 3461.

[552]. المناوي. عبد الرؤوف بن تاج العارفين.1356. *فيض القدير شرح الجامع الصغير*. مصر: المكتبة التجارية الكبرى. ج.3. ص.206.

[553]. القرآن. الأعراف 7: 33.

[554]. القرآن. البقرة 2: 152.

المناسبات، ورأى الداعية أنّ من المصلحة أن يتكلم فليتكلم، ثم يذكر لهم ابن عثيمين نموذجًا لبعض أهل العلم ممّن يحرص على تعليم الناس، حيث يصطحب معه كتابًا، ليقرأه على الحاضرين، فيستفيد، ويُفيد؛ ولا يفعل ذلك إلا إذا عَلِم من الناس قبول هذا الأمر؛ بأن يكون قد عوَّدهم عليه، أما إذا لم يعوِّدهم فإنه قد يُثقل عليهم، واقترح عليهم أسلوبًا آخر؛ وهو أن يفتح الداعية المجال بإيراد سؤال مثلًا حتى ينفتح المجال للناس، ويسألون، وينتفعون، واستدلّ على ذلك بحديث جبريل عليه السلام عندما جاء إلى النبي ﷺ يسأله عن الإسلام، والإيمان، والإحسان، والساعة، وأماراتها؛ وقال النبي ﷺ: «فَإِنَّهُ جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ»[555]، مع أنّ الذي يُجيب الرسول ﷺ؛ ولكن جعله معلّمًا وهو يسأل؛ لأنه هو السبب في هذا التعليم[556].

وكثير من أصحاب هذه المجالس يرحّبون بالشخص الذي يعلّمهم أو يذكّرهم بالله ﷻ، وأحيانًا يرتّبون بأنفسهم لقاءات أسبوعية أو شهرية مع بعض الدعاة.

وقال أيضًا معلّقًا على قول الله ﷻ: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾﴾[557] ومحفّزًا طلابه على تبليغ العلم، والقيام بواجب الدعوة: "أَدعو نَفْسي وإيَّاكم أن يَكون عِلْمنا مُنْسابًا إلى غيرنا، بمعنى أن نَنشُر العِلْم وأن نَدعوَ الناس إليه، وأمَّا أن نَبقَى كنُسَخ من كُتُب، الفائِدة لا تَعدو صُدورَنا، فهذا لا شَكَّ أنه ضعيف، ولا يَليق بطالِب العِلْم"[558].

ويُمكن الإضافة على ما قاله ابن عثيمين هنا: بأن نراعي المناسبات التي تقع في مثل هذه المجالس، فلكل مقام مقال، بحيث تكون النصيحة أو الرسالة الموجّهة إلى أصحابها تتناسب مع المناسبة التي اجتمعوا

---

555. مسلم. د. ت. *صحيح مسلم*. الإيمان. باب معرفة الإيمان والإسلام والقدر وعلامات الساعة. ج.1. ص.36. رقم الحديث 8.

556. العثيمين. 1431هـ. *تفسير القرآن الكريم (سورة البقرة)*. المملكة العربية السعودية: دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع. ط.2. ج.2. ص. 170-171.

557. القرآن. سبأ 34: 47.

558. العثيمين. 1436هـ. *تفسير القرآن الكريم (سورة سبأ)*. ص.287.

من أجلها، أو الزمن الذي هم فيه، كالأشهر الحرم مثلًا أو رمضان، أو المستجدات التي تحدث في واقعهم وينبغي التنبيه عليها، فهذا يكون أدعى للقبول.

المطلب الرابع: الحكمة في الدعوة

إنّ من أهم أسباب نجاح الدعوة إلى الله أن يتصف الداعية بالحكمة في دعوته، فهو يتأمل أحوال المدعوّين والظروف المحيطة بهم، ويعرف حاجتهم، ثم يدعوهم بما يقتضيه حالهم.

وكان ابن عثيمين ينكر على بعض الدعاة ممن يفتقر إلى الحكمة في الدعوة، ويكون عنده سَفَه؛ إما بتسرُّع وعنف، أو تباطؤ في غير موضعه، ففي الأول يحصل ردّ فعل عنيف من المدعوّين، وفي الثاني يحصل تمادٍ من المدعوّين يفوّت الفرصة على الداعين، وينصح الدعاة إلى الله بالحكمة في دعوتهم[559]، مستدلًا على ذلك بقول الله ﷻ: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾[560]، ولأنّ الحكمة: "فعل ما ينبغي، على الوجه الذي ينبغي، في الوقت الذي ينبغي"[561]، فإنّ من الحكمة في الدعوة اختيار الوقت المناسب للمدعو، فليس كل وقت مناسبًا للدعوة، ويشير إلى ذلك عند تفسيره لقول الله ﷻ: ﴿وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٠٤﴾[562] فنبّه الداعية إلى اغتنام الوقت الذي يرى فيه المدعو متقبلًا ثم يدْعُوهُ إلى الله، فأحيانًا يكون المدعو غضبانًا بسبب مؤثرات خارجية، فلا تتحمل نفسه أن يقبل من الداعية

---

559. العثيمين. 1436هـ. *تفسير القرآن الكريم (سورة النمل)*. ص.303.

560. القرآن. النحل 16: 125.

561. ابن القيم. محمد بن أبي بكر بن أيوب. 1996م. *مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين*. بيروت: دار الكتاب العربي. ط.3. ج.2. ص.449.

562. القرآن. آل عمران 3: 104.

حتى وإن كان كلامًا عاديًا، وأحيانًا يكون راضيًا ومنبسطًا يتقبل منه[563].

وأشار في تنزيله السابق أنّ المدعو يمرّ بحالات مختلفة؛ فيكون منشرح الصدر في بعض الأوقات، ويكون غاضبًا في أوقات أخرى، وكل إنسان يمرّ بمثل ذلك، وإذا لم يُحسن الداعية اختيار الوقت المناسب فربما لن تتحقق المصلحة من دعوته، أو تنقلب إلى مفسدة.

وموضوع الحكمة في الدعوة إلى الله يحتاج إلى مزيد من التوسّع، ولم أجد ذلك في تنزيله للآيات؛ ربما لأنه جعل التفاصيل في كتبه التي خصصها في موضوع الدعوة[564]، ولكثرة الكتب التي كُتبت في هذ المجال في عصره.

المطلب الخامس: الصبر على أذى المدعوّين

يتعرّض الداعية إلى كثير من الأذى والمعارضة من الناس؛ فطريق الدعوة مليء بالمشقات والتضحيات، وهذا لابدّ له من صبر، ولذلك أمر الله ﷻ رسوله ﷺ بالصبر على تبليغ الرسالة، قال تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾[565]، وهذه الأمور الشاقة قد تكون بالقول أو الفعل أو غير ذلك، وقد أشار ابن عثيمين إلى ذلك عند تفسيره لقول الله ﷻ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنُطۡعِمُ مَن لَّوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطۡعَمَهُۥٓ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٤٧﴾[566]، فقال: "ألقاب السوء التي يُلقِب بها أعداء الله أولياء الله لم تزل موجودة إلى يومنا هذا"[567] وذكر بعض الألفاظ التي تُطلقها طائفة من الناس

---

563. العثيمين. 1426هـ. *تفسير القرآن الكريم (سورة آل عمران)*. ج.2. ص.15.

564. مثل كتاب: رسالة في الدعوة إلى الله، وكتاب: زاد الداعية إلى الله.

565. القرآن. الأحقاف 46: 35.

566. القرآن. يس 36: 47.

567. العثيمين. 1426هـ. *تفسير القرآن الكريم (سورة يس)*. ص.173.

على الدعاة، وأنها تؤذي المؤمنين، وتضيق بها صدورهم، لكنهم إذا صبروا عليها أُجروا على الصبر، لاسيّما وأنه يُؤذَى في ذات الله ﷻ، فيكون هذا مَنقَبة لهم، ويكون هذا الداعية الذي أوذيَ في الله قد ناله ما نال أولياء الله من الأنبياء والصديقين والشهداء، والنبي ﷺ يخبرنا أنه يُبتلى الصالحون الأمثل فالأمثل[568].

وفي هذا تسلية للدعاة؛ فطريق الدعوة مليء بالعقبات، وعلى الداعية أن يتحلى بالصبر، ومما يعينه على الصبر في دعوته كما ذكر ابن عثيمين في تنزيله للآية أمران:

الأول: أنّه يؤذى في ذات الله، فالباعث على صبره محبة الله وابتغاء مرضاته، فيؤتيه الله أجره بغير حساب، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ ١٠﴾[569].

الثاني: أنّ الأنبياء من قبله أوذوا فصبروا، قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ كُذِّبَتۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمۡ نَصۡرُنَاۚ﴾[570].

وأشار إلى هذا المعنى عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٠٤﴾[571]، وذكّرهم بالأذى العظيم الذي أصاب الأنبياء من قبلهم، فقد طُعِنوا في أجسادهم وعقولهم وأهدافهم، ومع ذلك صبروا، واستمروا في دعوتهم،

---

568. كلامه جزء من الحديث الذي رواه مُصْعَب بنِ سَعْدٍ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ أَيُّ النَّاسِ أَشَدُّ بَلاءً؟ قَالَ: "الْأَنْبِيَاءُ، ثُمَّ الصَّالِحُونَ، ثُمَّ الْأَمْثَلُ، فَالْأَمْثَلُ مِنَ النَّاسِ، يُبْتَلَى الرَّجُلُ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ صَلابَةٌ زِيدَ فِي بَلائِهِ، وَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ رِقَّةٌ خُفِّفَ عَنْهُ، وَمَا يَزَالُ الْبَلاءُ بِالْعَبْدِ حَتَّى يَمْشِيَ عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ لَيْسَ عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ" ابن حنبل. 2001. *مسند الإمام أحمد بن حنبل.* مسند باقي العشرة المبشرين بالجنة. مسند أبي إسحاق سعد بن أبي وقاص ﷺ. ج.3. ص. 78. رقم الحديث: 1481. وصحح إسناده أحمد شاكر. وحسنه محقق المسند ط الرسالة.

569. القرآن. الزمر 39: 10.

570. القرآن. الأنعام 6: 34.

571. القرآن. آل عمران 3: 104.

فالواجب على الداعية أن يصبر، ويحتسب أجره على الله[572].

ولا غرابة في تأكيد ابن عثيمين لهذه المعاني في تسلية الداعية، وربطها بواقع المجتمع؛ فالدعاة بحاجة إلى ذلك؛ لأنهم يواجهون أذًى من المجتمع، وقد لا يشعر بذلك إلا الدعاة أمثالهم، وقد أحسن في هذا المجال حيث وضع للدعاة حلًا عمليًا فقال: "إذا رأينا الناس قد شدوا الحبل أرخيناه، وإذا رأيناه لينًا جذبناه"[573].

ولنا في رسول الله ﷺ أسوة حسنة، فقد لقي أشدّ الأذى من قومه، تنوّع ما بين أذى نفسي، وجسدي، من سب، واستهزاء، وكيد ومكر، ورمي بالحجارة، وصد عن دعوته[574]، فصبر واستمرّ على دعوته ﷺ.

المطلب السادس: الهداية ليست بيد الداعية

يقول الله ﷻ: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ٣﴾[575]، ومن هذه الآية الكريمة وجّه ابن عثيمين نصيحة للدعاة إلى الله؛ بأن لا يُهلكوا أنفسهم بالهمّ والغمّ لعدم قبول الناس للحق، فقد أشفق الله تعالى عَلَى نبيّه ﷺ مِن أن يُهلك نفسَه[576] بسببِ عدمِ إيمانهم، بعد معاناته من عدمِ إيمانهم، ومنَ المشقَّة الشديدةِ، فقد كان يحزن، ويضيق صدرُه، ثم نزّل هذه الآية على واقع الدعاة الذين يعانون من أذى قومهم، فقال: "ففي هذا دليل على أن الإنسان الداعية لا ينبغي أن يُهلِك نفسه في الهمّ والغمّ لعدم قَبول النَّاس

---

572. العثيمين. 1426هـ. *تفسير القرآن الكريم (سورة آل عمران)*. ج.2. ص. 23.

573. المرجع نفسه. ج.2. ص. 25.

574. ابن هشام. عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري. 1955. *السيرة النبوية لابن هشام*. مصر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده. ط.2. ج.1. ص. 354-361.

575. القرآن. الشعراء 26: 3.

576. يَقْتُلها منَ الغمّ.

للحقّ؛ لأنّه إذا أتى بما يجب عليه انشرح صدره، وكفى"[577].

ثم بيّن السبب للداعية الذي يحصل له مثل ذلك قائلًا له: "لأنك إذا اغتممتَ اشتغلتَ بغيرِكَ عن نفسِكَ، وصار همُّكَ وَلاء النَّاس، وهذا يُفسِد عليك أنت عباداتِكَ الخاصَّةَ"[578].

والهداية ليست بيد الداعية؛ بل هي بيد الله ﷻ، ولو شاء لهدى الناس جميعًا، ولكن حكمته ﷻ اقتضت أن يخلق الناس مختارين، وينزّل عليهم الكتب، ويرسل لهم الرسل، فمن سلك سبيل الهداية فله الجنة، ومن خالفه فله النار. قال سبحانه: ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَاۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾﴾[579]، وانشغال الداعية بأذى الناس ربما يجعله يتنازل عن دعوته، فتكثر الفتنة، وينتشر الفساد.

خلاصة المبحث:

1- معرفة ابن عثيمين بواقعه، وبحال الدعاة وما يواجهون من أذى.

2- تنزيله للآيات في الجانب الدعوي كان تنزيلًا صريحًا؛ يذكر فيه حال الواقع، وأغلبه تنزيل عكسي يكون الواقع مخالفًا لما جاء في الآية أحيانًا، وقد يكون بحاجة إلى تنبيه لكيفية العمل بها.

3- استدلاله بالسنة النبوية على تنزيل الآيات على الواقع.

4- تسلية الدعاة وحثهم على الصبر، من خلال تنزيل الآيات على الواقع.

---

[577]. العثيمين. 1435هـ. تفسير القرآن الكريم (سورة الشعراء). ص. 20.

[578]. المصدر نفسه. ص. 21.

[579]. القرآن. الأنعام 6: 104.

المبحث الثالث

تنزيل الآيات على الواقع في مجال الآداب والأخلاق

تمهيد:

إنّ كمال الخلق من كمال الدين، وقد جعل الإسلام حسن الخلق عبادة يُؤجر عليها الإنسان، روى أبو الدرداء، عن رسول الله ﷺ قال: «مَا مِنْ شَيْءٍ أَثْقَلُ فِي الْمِيزَانِ مِنْ حُسْنِ الْخُلُقِ»[580]، وقد اهتم الدعاة والمصلحون بالأخلاق، وحثوا المجتمع على التمسك بأحسنها، والتخلي عن سيئها، ومن هؤلاء ابن عثيمين ﷺ فمن الموضوعات المهمة التي ركّز عليها في تفسيره: موضوع الأخلاق؛ حيث بيّن أهمية التحلي بها عند تفسيره لقول الله ﷻ: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾[581]، فأشار إلى أنّ الحظ العظيم ليس من الثواب فحسب، بل من الثواب والأخلاق والرزانة والتأني وغير ذلك؛ لأنّ الإنسان ينال درجة عظيمة من الأخلاق والرزانة والثواب، وليس الحظ العظيم أن يزداد الإنسان درهمًا ودينارًا، بل إنّ الأخلاق هي كل شيء سواء مع الله أو مع عباد الله[582]، وذكر أنّ "الشرائع السابقة التي شرعها الله للعباد كلها تدلّ على الأخلاق الفاضلة"[583].

ويمكن عرض المواضع التي كتب فيها ابن عثيمين عن الأخلاق في تفسيره –سواء الأخلاق الحميدة

---

[580]. أبو داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير. د. ت. *سنن أبي داود*. كتاب الأدب. باب في حسن الخلق. بيروت: المكتبة العصرية. ج.4. ص.253. رقم الحديث: 4799. قال الألباني: حديث صحيح.

[581]. القرآن. فصلت 41: 35.

[582]. العثيمين. 1437هـ. *تفسير القرآن الكريم (سورة فصلت)*. ص. 190.

[583]. العثيمين. 1428هـ. *مكارم الأخلاق*. القصيم: مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية. ص.11.

أو الأخلاق الذميمة– ضمن المطالب الآتية:

المطلب الأول: إفشاء السلام

إنّ من حسن الخلق إفشاء السلام على من عرفت ومن لم تعرف؛ لأنّ إفشاء السلام من أسباب المحبة بين الناس، وتأليف قلوبهم، وقد لاحظ ابن عثيمين أنّ بعض الناس اليوم إذا سلّم يُسلّم على من يعرف، وأما من لا يعرفه فلا يسلم عليه، ثم بيّن خطأ ذلك؛ عند تفسيره لقول الله ﷻ: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ١٤﴾[584]، فإنّ من تزكية النفس: حسن معاملة الخَلْق، والإنسان إذا سلّم على مَن يعرف فقط لم يكن السلام خالصًا لله، أما إذا سلّم على من يعرف ومن لا يعرف فإنه ينال بذلك محبة المسلمين، ودخول الجنة، واستشهد بحديث رسول الله ﷺ «لَا تَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا، وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا، أَوَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ؟ أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ»[585]، ثم ضرب مثالًا من الواقع فقال: لو مرّ بك رجل ولم يسلّم عليك صار في نفسك شيء، وإذا لم تسلّم عليه أنت صار في نفسه شيء، لكن لو سلّمت عليه، أو سلّم عليك صار هذا كالرباط بينكما يوجب المودة والمحبة[586]، ولذلك يقول النبي ﷺ في السلام: «وَتَقْرَأُ السَّلَامَ عَلَى مَنْ عَرَفْتَ وَمَنْ لَمْ تَعْرِفْ»[587].

ومجتمعنا بحاجة إلى هذا التنزيل؛ فالسلام من أسرع الطرق إلى الألفة والمحبة بين أفراد المجتمع؛ فالشخص الذي يُلقي السلام على جميع المسلمين يضع الله له محبة وقبولًا، ويكون ذلك دليلًا على تواضعه

---

584. القرآن. الأعلى 87: 14.

585. مسلم. د. ت. *صحيح مسلم*. كتاب الإيمان. باب بيان أنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون، وأن محبة المؤمنين من الإيمان، وأن إفشاء السلام سبب لحصولها ج. ص.74. رقم الحديث:54.

586. العثيمين. 2003م. تفسير القرآن الكريم (جزء عم). ص. 172.

587. البخاري. 1422هـ. *صحيح البخاري*. الإيمان. باب إطعام الطعام من الإسلام. ج.1. ص.12. رقم الحديث: 12. ومسلم. *صحيح مسلم*. الإيمان. باب بيان تفاضل الإسلام وأي أموره أفضل. ج1. ص 65. رقم الحديث: 39.

وإخلاصه، والذي لا يُلقي السلام على الناس يستوحش الناس منه، ويتهمونه بالكبر، مما يؤدي إلى تنافر القلوب.

المطلب الثاني: الصبر

الصبر من الأخلاق العظيمة التي حثّ عليها القرآن الكريم، ورتّب عليها الأجر العظيم، قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ ١٠﴾[588]، وهذه الدنيا التي جُبلت على الهموم والمصائب والفتن، تحتاج إلى صبر، لكننا نرى في واقعنا من الناس إذا أصابته ضراء لا يصبر، ويجزع ويسخط، وهذا ينافي الصبر، وأراد ابن عثيمين معالجة هذه المسألة من كتاب الله ﷻ، فوقف عند قول الله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٣﴾[589]، وبيّن فضيلة الصبر، وحاجة الإنسان إليه، رغم مشقته على النفس، وثقله عليها، إلّا أنّ الإنسان يجب عليه أن يصبر خاصة إذا أصيب بمصيبة؛ حتى لا يقسو قلبه، مستخدمًا الخطاب العقلي الإيماني في إقناع من لم يستطع الصبر؛ وذلك بكونه عبدًا لله، والعبد خاضع لفعل السيد، والله ﷻ يفعل بعبده ما يشاء، كما يفعل في السماء ما يشاء، ويفعل في الأرض ما يشاء، فكذلك العبد خَلْق من المخلوقات يفعل الله به ما يشاء، لذلك عليه الصبر عند الضراء التي تصيبه، ومن نعمة الله على العبد أن جعل الضراء تكفيرًا لسيئاته، فإذا صبر أُثيب ثواب الصابرين[590].

وكان يرغّب الناس بالصبر، ويذكّرهم بأنّ انتظار الفرج عبادة، وباب للفرج، مستدلًا بقول النبي ﷺ:

---

[588]. القرآن. الزمر 39: 10.

[589]. القرآن. البقرة 2: 153.

[590]. العثيمين. 1433هـ. *تفسير القرآن الكريم (سورة الأنعام)*. ص. 223.

«وَاعلَمْ أَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ، وَأَنَّ الْفَرَجَ مَعَ الْكَرْبِ، وَأَنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا»[591]، فإذا كان العبد ينتظر الفرج هان عليه الصبر؛ لأنه يؤمّل أنّ الأمور ستزول، وأنّ دوام الحال من المحال[592].

وهذا التنزيل من ابن عثيمين يعالج مشكلة نراها كثيرًا في المجتمع؛ فمن الناس مَن يتسخط عند المصيبة، سواء بالقول أو الفعل، مما يجعله يفقد الأجر، ويقع في الإثم، والنبي ﷺ يقول: «عِظَمُ الْجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ الْبَلَاءِ، وَإِنَّ اللَّهَ إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ، فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا، وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السُّخْطُ»[593].

فإذا علم الإنسان أنه عبد لله يفعل به ما يشاء كما ذكر ابن عثيمين فإنّ هذا سيكون أدعى إلى صبره واستسلامه لربه، وصبره ورضاه.

وكان تركيز ابن عثيمين في تنزيله للآية على الصبر على الأذى، في حين أنّ الصبر على الطاعات، والصبر عن المعاصي من أهم أنواع الصبر، كما قال ابن القيم ﷺ: "الصبر المتعلق بالتكليف وهو الأمر والنهى أفضل من الصبر على مجرد القدر؛ فإن هذا الصبر يأتي به البر والفاجر والمؤمن والكافر، فلا بد لكل أحد من الصبر على القدر اختيارًا أو اضطرارًا"[594].

المطلب الثالث: الجدال

نرى في عصرنا مَن يجادل بغير علم؛ حبًا في الظهور والتميّز، أو اتباعًا للهوى، وخاصة أولئك الذين

---

591. ابن حنبل. 2001. *مسند الإمام أحمد بن حنبل*. مسند بني هاشم. مسند عبد الله بن العباس بن عبد المطلب، عن النبي ﷺ. ج.5. ص. 19. رقم الحديث: 2803. ورواه الطبراني. سليمان بن أحمد بن أيوب. 1994م. *المعجم الكبير*. القاهرة: مكتبة ابن تيمية. ط.2. ج.11. ص. 123. رقم الحديث: 11243. وقال محقق المسند ط الرسالة: إسناده قوي.

592. العثيمين. 1431هـ. *تفسير القرآن الكريم (سورة البقرة)*. ط.2. ج.2. ص. 174.

593. ابن ماجه. أبو عبد الله محمد بن يزيد. د. ت. *سنن ابن ماجه*. كتاب الفتن. باب الصبر على البلاء. القاهرة: دار إحياء الكتب العربية. ج. 2. ص. 1338. رقم الحديث: 4031. والترمذي. 1998م. *سنن الترمذي*. أبواب الزهد. باب ما جاء في الصبر على البلاء. ج.4. ص. 179. رقم الحديث: 2396. وحسن إسناده الألباني والأرناؤط.

594. ابن القيم. محمد بن أبي بكر بن أيوب. 1989. *عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين*. دمشق: دار ابن كثير. ط.3. ص.36.

لم يحصلوا على قدرٍ كافٍ من العلم. ولما كان الجدال يؤدي إلى العداوة والقطيعة بين المسلمين فإنّ ابن عثيمين ﵀ ساهم في علاج هذه الظاهرة عند تفسيره لقول الله ﷻ: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾﴾[595]، فبيّن أنّ الخصومة بالباطل مذمومة، ووجه ذلك: أنّ هذه الآية سِيقت في مقام الذم لا مساق المدح، وفصّل المسألة تفصيلًا علميًا؛ فقسّم الجدال إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: جدال محمود؛ وهو الذي يُقصد به إثبات الحق، وإبطال الباطل.

القسم الثاني: جدال مذموم منهي عنه؛ وهو الجدال بعد بيان الحق.

القسم الثالث: يدور بين الأول والثاني وتركه أولى؛ كالجدال الذي يدور في مجالسنا اليوم، وهو جدال لا يمسّ إلى الحق أو الباطل بصِلة[596].

ثم بيّن أنّ المؤمن لا يكون مجادِلًا، بل يكون مستسلِمًا للحق ولا يجادل فيه، وحثّ الناس إلى تدبر حال الصحابة ﵃ فقد استسلموا غاية الاستسلام لما جاءت به الشريعة، ولم يجادلوا، ولم يقولوا: لِمْ؟، فعندما قال رسول الله ﷺ للصحابة رضوان الله عليهم: «تَوَضَّئُوا مِنْ لُحُومِ الْإِبِلِ، وَلَا تَتَوَضَّئُوا مِنْ لُحُومِ الْغَنَمِ»[597]، ولم يقل الصحابة لِمْ؟، بل قالوا سمعنا وأطعنا ولم يجادلوا، وكذلك فعلوا في بقية الأوامر[598].

فالجدال بعد ظهور الحق هو جدال مذموم كمن يكابر نصوص التشريع، أو يعارض الإجماع، أو يشكك في الثوابت، أو غير ذلك مما يؤدي إلى انتقاص الدين وأهله، أو يورث التفرقة بين أبناء المجتمع، فكل ذلك مما نهى عنه الشرع، أما إذا كان جدالًا لبيان الحق، وإظهار فساد الخصم بالحجة والبرهان، فهو

---

595. القرآن. يس 36: 77.

596. العثيمين. 1426هـ. *تفسير القرآن الكريم (سورة يس)*. ص.290-291.

597. ابن ماجه. د. ت. *سنن ابن ماجه*. كتاب الطهارة وسننها. باب ما جاء في الوضوء من لحوم الإبل. ج.1. ص. 166. رقم الحديث: 497. وقال محقق ابن ماجة: إسناده صحيح.

598. العثيمين. 1423هـ. *تفسير القرآن الكريم (سورة الكهف)*. ص. 96- 97.

جدال محمود، مع مراعاة أن يكون بالتي هي أحسن، امتثالًا لقول الله ﷻ: ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾[599].

وأما النوع الثالث الذي ذكره ابن عثيمين وهو ما يقع من جدال في مجالسنا اليوم، فهذا نراه كثيرًا، فمن الناس مَن لديه شغف بإثبات خطأ الآخرين، والتمسك برأيه وإن كان مخالفًا للصواب، فيجادل ليس لبيان الحق؛ وإنما للقضاء على من يعتبرهم خصومًا له، والحلّ الأمثل مع هؤلاء: عدم الخوض معهم في نقاشات، أو ترك المجلس حتى لا يؤدي ذلك إلى المشاحنة والبغضاء.

المطلب الرابع: الكبر

الكبر كما عرّفه رسول الله ﷺ: «بَطَرُ الْحَقِّ، وَغَمْطُ النَّاسِ»[600]، وقد يصل بصاحبه أن يرى نفسه فوق الحق؛ فلا يقبل الحق من أحد، إضافة إلى انتقاص الناس واحتقارهم.

والكبر مرض اجتماعي خطير، ما إن ينتشر بين الناس إلا ويكون سببًا في تباغضهم وتنافرهم، ولذلك رأى ابن عثيمين رحمه الله أن يعالج هذا الداء الخطير عند تفسيره لقول الله ﷻ: ﴿قِيلَ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ٧٢﴾[601]، فقال: "إذا رأيت من نفسك تكبرًا على أحد فعالج هذا الداء؛ عالج هذا المرض قبل أن يستشري؛ لأنّ هذا المرض للقلب بمنزلة السرطان للبدن، إن لم تبادر بعلاجه فإنه يقضي عليك، ولا تتهاون بالكبر، فالكبر خلق رذيل ذميم"[602].

فبيّن خطر الكبر على الإنسان بلهجة شديدة؛ حتى لا يتهاون فيه أحد، وشبهه بمرض السرطان

---

599. القرآن. النحل 16: 125.

600. مسلم. د. ت. صحيح *مسلم*. كتاب الإيمان. باب تحريم الكبر وبيانه. ج.1. ص. 93. رقم الحديث: 147.

601. القرآن. الزمر 39: 72.

602. العثيمين. 1436هـ. *تفسير القرآن الكريم (سورة الزمر)*. ص. 493.

الذي يخافه الناس، ويُسارعون في علاجه حتى لا يقضي عليهم، وفي هذا التشبيه تشنيع لمرض الكبر، وحثّ للناس على تركه.

ثم رغّب الناس على التحلي بالتواضع، فما تواضع أحد إلا ووجد راحة وطمأنينة، ويحصل له في قلوب العباد محبة وألفة، هذا الأثر الدنيوي، أما في الآخرة فإنه يزداد ثوابًا ورفعة[603]، واستدلّ بقول النبي ﷺ: «وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلَّهِ إِلَّا رَفَعَهُ اللهُ»[604].

والمتأمل في كلامه يجد أنّه ذكر الداء ثم بيّن الدواء، ومجتمعنا بأشد الحاجة إلى بيان ذلك؛ خاصة وأنّ فيه أناسًا يردّون الحق، مما يجعلهم غارقين في أخطائهم وعيوبهم؛ وهذا يؤدي بهم إلى الخسران في الآخرة، وفيه أناسًا يحتقرون الناس ويظنون أنهم أفضل من غيرهم، مما يؤدي إلى نفور الناس منهم، وبذلك يحصل التباغض في المجتمع.

المطلب الخامس: أخلاق المنافقين

يرى ابن عثيمين ﷺ أنّ خصال المنافقين انتشرت بين المسلمين، فقال: "والآن لو نظرت في واقع المسلمين اليوم لوجدت كثيرًا منهم إذا حدّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا خاصم فجر، وإذا اؤتمن خان"[605]، ويظهر من كلامه أنّ هذه الخصال كان لها انتشار في عصره، ولذلك أولى هذه المسألة اهتمامًا واضحًا من خلال تفسيره لقول الله ﷻ: ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٣﴾﴾[606]، فوصف

---

603. المرجع السابق. ص. 493- 494.

604. مسلم. د. ت. *صحيح مسلم*. كتاب البر والصلة والآداب. باب استحباب العفو والتواضع. ج.4. ص. 2001. رقم الحديث: 2588.

605. العثيمين. 1436هـ. *تفسير القرآن الكريم (سورة الأحزاب)*. ص. 539.

606. القرآن. الأحزاب 33: 73.

لنا أحداثًا تقع في المجتمع يتّصف أصحابها بصفات المنافقين، فقال: وما أكثر الذين يأتون إلينا يشكون من كُفلائهم، أتى به على عقد معلوم فيما بينهم، ثم لا يفي بالعهد، ولا يفي بالعقد، يماطل الأجرة وربما ينكرها، ويُؤذي العامل ويحمّله ما ليس واجبًا عليه.

ويكثر مثل هذا في مجتمع ابن عثيمين والمجتمعات المجاورة له؛ لكثرة تعاملهم مع الخدم والعمّال، فقد يأتي بعض الناس بالخادمة أو السائق أو غيرهم من العمّال ثمّ لا يعطيه أجرته، ويبخسه حقه، أو يقسو عليه ويحمّله ما لا يطيق، وهذا يستدعي توعية للمجتمع بخطر هذا الظلم، وبيان حرمة نقض العقود التي أمرنا الله ﷻ بالوفاء بها، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ﴾[607] ومجتمعنا بحاجة ماسّة إلى مثل هذا التنزيل الذي ينصر المظلوم، ويحفظ المجتمع من العقوبة والنقمة.

ثم ذكر مثالًا آخر للخيانة: وهو ما يفعله كثير من أولياء النساء في التزويج، إذا خطب منه الرجل الصالح المستقيم في دينه وخلقه، وعرف أنه لن يعطيه مالًا رَدّه، واختلق له الأعذار، ثم يزوجها ابن عمها الذي ليس له خلق ولا دين، أو مَن يُكثر له الدراهم.

وأنكر على هؤلاء، ووصف عملهم بالظلم، ثم قال: إنّ للبنت أن ترفع الأمر إلى القاضي، وأنّ على القاضي أن يتدخّل في هذا الموضوع، ويقول لأبيها زوّجها وإلا زوّجتها أنا أو من يليك في الولاية من عصبتها[608].

ولأنّ هذا يقع كثيرًا في بعض المجتمعات فإنّ ابن عثيمين أرشد هذه المرأة في هذه الحالة إلى الطريقة التي تستطيع أن تتخلص بها من هذا الظلم، وهي رفْع الأمر إلى القاضي؛ حتى يتدخّل في أمرها، ويقول

---

607. القرآن. المائدة 5: 1.

608. العثيمين. 1436هـ. *تفسير القرآن الكريم (سورة الأحزاب)*. ص.541- 542.

لأبيها زوّجْها وإلا زوّجتُها أنا أو من يليك في الولاية من عصبتها[609]، وكلامه هذا يوافق ما قاله بعض الفقهاء في مسألة عضل الولي؛ فإذا عضلها وليها زوّجها السلطان[610]. فهذا حلّ شرعي حازم لهذه المشكلة.

وذكر نوعًا آخر للخيانة: وهو ما يفعله بعض الناس في أهله؛ يُرضيهم بما حرّم الله عليهم، فيجلب لهم من وسائل الإعلام المرئية والمقروءة والمسموعة، ما فيه البلاء والشقاء، وأشار إلى أنّ هذا خيانة للأمانة، وسوف يحاسب عند الله ﷻ، واستدلّ بقوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾[611] وبحديث رسول الله ﷺ «وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي أَهْلِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ»[612]، ثم وجّه نصيحة لأولياء الأمور بتوجيه أهلهم إلى الطريق المستقيم، وأن يتذكروا دائمًا مسؤوليتهم أمام الله ﷻ.

وذكر علامة أخرى من علامات النفاق: وهي الرياء، كالذي يرائي بالعبادة ليُقال عنه عابد، أو مَن يتصدق أمام الناس ليُقال عنه كريم، لا ليتقرب لرب العالمين، ثم نبّه بأنّ هذا الرياء مُحبِط للعمل، مستدلًا بقول الله ﷻ في الحديث القدسي: «أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي، تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ»[613]، وخاطب المرائي بطريقة عقلية قائلًا له: وماذا ينفعك الناس إذا راءيتهم؟ وماذا يضرونك إذا أخلصت العمل لله وتركتهم؟ إنهم لن يضروك شيئًا بالإخلاص، وإنهم يضرونك بالرياء، وأنت الذي

---

609. المرجع السابق. ص.541- 542.

610. ابن قدامة. أبو محمد موفق الدين عبد الله بن أحمد. 1968. *المغني*. القاهرة: مكتبة القاهرة ج.7. ص.30. وانظر: ابن رشد. 2004. *بداية المجتهد ونهاية المقتصد*. ج.3. ص.42.

611. القرآن. التحريم 66: 6.

612. البخاري. 1422هـ. *صحيح البخاري*. كتاب الجمعة. باب الجمعة في القرى والمدن. ج.2. ص. 5. رقم الحديث: 893. ومسلم. *صحيح مسلم*. كتاب الإمارة. باب فضيلة الإمام العادل والحث على الرفق بالرعية. ج3. ص 1458. رقم الحديث: 1829.

613. مسلم. د. ت. *صحيح مسلم*. كتاب الزهد والرقائق. باب من أشرك في عمله غير الله. ج.4. ص. 2289. رقم الحديث: 2985.

أضررت بنفسك[614].

وما ذكره ابن عثيمين في الأمثلة السابقة شائع في واقعنا، وقد كان ثاقب الرأي في سرد العلاج؛ لأنّ مرض النفاق من أخطر الأمراض وأكثرها ضررًا على المجتمع المسلم.

خلاصة المبحث:

1- فقه ابن عثيمين بما يدور في واقعه من أخلاق تخالف ما جاء به الإسلام.

2- التصريح بما يقع في المجتمع من أخلاق ذميمة، وضرب الأمثلة من الواقع.

3- الاستشهاد بالسنة النبوية، وبفعل الصحابة ﷺ عند تنزيل الآيات على الواقع.

4- استخدام أسلوب الإقناع العقلي لمن خالف الآية.

5- الحزم في وصف علاج أمراض المجتمع من الآيات إذا اقتضى الأمر.

[614]. العثيمين. 1436هـ. *تفسير القرآن الكريم (سورة الأحزاب)*. ص.539- 542.

المبحث الرابع

تنزيل الآيات على الواقع في مجال تدبر القرآن

تمهيد:

أنزل الله ﷻ القرآن الكريم وجعله كتاب هداية، ولذا كان المقصود الأعظم من نزوله هو تدبره والعمل به، وقد وضّح ابن عثيمين ﷺ بيان عظمة القرآن، وأهمية العمل به من خلال تفسيره للآيات، ويمكن عرض ما كتبه في تنزيل الآيات على الواقع في تدبر القرآن، حسب المطالب الآتية:

المطلب الأول: الحث على تدبر القرآن

حثّ ابن عثيمين المسلمين على تدبر القرآن الكريم عند تفسيره لكثير من الآيات، منها قول الله ﷻ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾[615]، فبعد تفسيره للآية قال: "وفي هذا الحث على فقه القرآن وتعلم معناه، كما كان الصحابة رضوان الله عليهم لا يتجاوزون عشر آيات حتى يتعلموها وما فيها من العلم والعمل"[616].

وبيّن أنّ الله ﷻ سمّى الذي لا يعرف معنى الآيات بالأميّ، وذلك عند تفسيره لقول الله ﷻ: ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝﴾[617]، فذكر أنّ سبب قولهم: (أساطير الأولين) أنّ هذا بحسب واقعهم، لأنّ حالهم تقتضي ذلك؛ وكلما أعرض الإنسان عن

---

615. القرآن. الكهف 18: 57.

616. العثيمين. 1423هـ. *تفسير القرآن الكريم (سورة الكهف)*. ص. 104.

617. القرآن. الفرقان 25: 5.

القرآن يكون أبعد عن معرفته، وكلما أقبل عليه ازداد به علمًا ويقينًا.

ولذلك يقول: "ولهذا أنا أدعوكم ونفسي إلى أن يتأمل الإنسان دائمًا في القرآن ويتدبر؛ لئلا يكون أميًا"[618]، مستشهدًا على ذلك بقول الله ﷻ: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾﴾[619]، وأشار إلى أنّ سبب تسمية الله ﷻ لهم بالأميّين[620]؛ لأنهم لا يعلمون الكتاب، ثم وصف حال واقعه وذكر حرص الناس فيه على تلاوة القرآن لفظًا، والتقصير في تدبره، ثم نصحهم بالرجوع إلى القرآن، تلاوة وحفظًا وتدبرًا وتأملًا في آياته[621].

ثم ذكر أيضًا عند تنزيله للآيات أمور تعين على تدبر القرآن وفهمه، منها:

1- الرجوع إلى كتب التفسير الموثوقة

فمعرفة تفسير القرآن يُعين صاحبه على فهم معاني الآيات، ومن ثَم تطبيقها والعمل بها، ونحن نرى في واقعنا قصورًا كبيرًا في هذا الجانب، فكثير من الناس يكتفي بقراءة القرآن تلاوة دون الرجوع إلى كتب التفسير، وكان ابن عثيمين ﷺ يحث الناس ويرشدهم إلى قراءة كتب التفسير؛ لكي تعينهم على فهم القرآن وتدبره، يقول عند تفسيره لقول الله ﷻ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾[622] "لذلك أحثكم -أيها الإخوة- على تعلم معنى القرآن الكريم، فاقرؤوا كتب التفسير

---

618. العثيمين. 1436هـ. *تفسير القرآن الكريم (سورة الفرقان)*. ص.38.

619. القرآن. البقرة 2: 78.

620. هذه الآية في سياق الحديث عن اليهود، فالمقصود بالأمّيين في الآية هم اليهود الذين كان منهم أمّيون لا يحسنون القراءة ولا الكتابة، انظر: البغوي. 1420 هـ. *معالم التنزيل في تفسير القرآن*. ج.1. ص. 136، ابن كثير. 1999. *تفسير القرآن العظيم*. ج.1 ص. 310.

621. العثيمين. 1436هـ. *تفسير القرآن الكريم (سورة الفرقان)*. ص.39.

622. القرآن. ص 38: 29.

الموثوقة، واحذروا الكتب التي لا يُعرف مَن ألّفها أو التي عُرِف من ألّفها بأنه منحرف، أو ما أشبه ذلك؛ لأنّ من المفسرين مَن حرّف القرآن ونقله إلى ما يعتقده هو، لا إلى ما يدلّ عليه القرآن، فاحذروها، وإذا لم تتمكنوا من هذا فاسألوا أهل العلم حتى تستفيدوا من القرآن الكريم"[623].

وهذا التنزيل الصريح الصحيح فيه حثّ للمسلمين على قراءة كتب التفسير؛ ليحصل الانتفاع بها، والتحري في اختيار كتب التفسير خشية الوقوع في تحريف معنى الآيات، وقد ظهر في عصرنا من يقرأ القرآن بالطريقة الحداثية التي تجاوز أصحابها الأدوات العلمية للمفسّر، وأسقطوا الفلسفة الغربية على آيات القرآن، فليحذر المسلم من قراءة كتبهم، وليحذّر مجتمعه منهم.

2- معرفة الوقف والابتداء

إنّ علم الوقف والابتداء من العلوم المهمة لقارئ القرآن؛ فلا يتبين معنى كلام الله ويتمّ على أكمل وجه إلا بمعرفة الوقف والابتداء[624]، وأشار ابن عثيمين عند تفسيره لقول الله ﷻ: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ۝٦﴾[625]، إلى أهمية الوقف عند قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ حتى يصحّ المعنى.

ثم يحكي حال الواقع؛ وذلك أنّ كثيرًا من الناس لا يتنبّه للمواقف، ويذكر موقفًا شخصيًا له فقد تعلّم ذلك من شيخه عبد الرحمن السعدي ﷺ حيث كان يقوم بهم في رمضان صلاة القيام والتراويح، ويقف المواقف اللائقة، حتى يتعجب من ذلك، وقد كان قبل ذلك يقرأ القرآن مرسلًا دون التفات للمعنى، ثم يقول: "ومثل هذه الأشياء في الواقع يجب أن يتنبّه لها الإنسان؛ لأنّ القرآن الكريم ليس كالكلام الذي

---

623. العثيمين. 1436هـ. *تفسير القرآن الكريم (سورة الزخرف)*. ص.20.

624. الصفاقسي. علي بن محمد بن سالم. د. ت. *تنبيه الغافلين وإرشاد الجاهلين عما يقع لهم من الخطأ حال تلاوتهم لكتاب الله المبين*. تونس: مؤسسات عبد الكريم بن عبد الله. ص.128.

625. القرآن. القمر 54: 6.

نكتبه نحن أو نقوله"[626].

ولم يتحرج ابن عثيمين من ذكره أنه لم يُحسن الوقوف، حتى تعلّم ذلك من شيخه، فنصح الناس بذلك لانتفاعه بمعرفته، و"معرفة الوقف والابتداء تنبني على معرفة معاني القرآن وتفسيره"[627]، وقد اجتهد العلماء المشرفون على كتابة المصحف الشريف بوضع علامات الوقف التي تسهّل على القارئ معرفتها.

المطلب الثاني: التمسك بالقرآن سبب للمجد والعزّة

بيّن ابن عثيمين أنّ من تمسك بهذا القرآن العظيم فله المجد والعزة والكرامة والرفعة، وذلك بعد تفسيره لقول الله ﷻ: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ۝٢١ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ۝٢٢﴾[628]، حيث نزّل الآية على الواقع حكومة وشعبًا فقال: "ولهذا ننصح أمتنا الإسلامية بادئين بأفراد شعوبها أن يتمسكوا بالقرآن العظيم، ونوجّه الدعوة على وجه أوكد إلى ولاة أمورها أن يتمسكوا بالقرآن العظيم، وأن لا يغرهم البهرج المزخرف الذي يرد من الأمم الكافرة التي تضع القوانين المخالفة للشريعة، المخالفة للعدل، المخالفة لإصلاح الخلق، أن يضعوها موضع التنفيذ، ثم ينبذوا كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ وراء ظهورهم"[629].

ثم أشار إلى أنّ سبب تأخر المسلمين -رغم كثرة عددهم- هو تركهم لما به عزتهم وكرامتهم وهو القرآن الكريم، وناشد ولاة أمور المسلمين جميعًا، بأن يتقوا الله ﷻ، وأن يرجعوا رجوعًا حقيقيًّا إلى كتاب الله تعالى، وسنة رسوله ﷺ؛ حتى يستتب لهم الأمن والاستقرار، وتحصل لهم العزة والمجد والرفعة، وتطيعهم شعوبهم، لطاعتهم لربهم[630].

---

626. العثيمين. 1433هـ. *تفسير القرآن الكريم (سورة الأنعام)*. ص.47.

627. السخاوي. علي بن محمد بن عبد الصمد. 1997. *جمال القراء وكمال الإقراء*. بيروت: دار المأمون للتراث. ص.773.

628. القرآن. البروج 85: 21- 22.

629. العثيمين. 2003م. *تفسير القرآن الكريم (جزء عم)*. ص.148- 149.

630. المرجع السابق. ص.148- 149.

ولما كان تقدّم المسلمين وعلوّهم منتفيًا في زمانه، أراد أن يبين ذلك فاستخدم تنزيلًا عكسيًا للآية، لينبّه الناس إلى العودة إلى كتاب الله ﷻ، ويُلمح من كلامه تحسّره على حال المسلمين اليوم وما وصلوا إليه من ضعف وهوان وتأخر، فلذلك ناشد ولاة الأمور -لأنّ صلاحهم له دور كبير في صلاح رعيتهم- بأن يستمسكوا بكتاب الله ﷻ الذي هو سبب لمجدهم ورفعتهم وطاعة رعيتهم.

وعند تفسيره لقول الله ﷻ: ﴿وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ۝٤﴾[631]، بيّن أنّ القرآن عالٍ، ومن تمسّك به فله العلو، مستدلًا بقوله ﷻ: ﴿فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ﴾[632]، ثم قال: "وشاهد هذا الواقع؛ لما كانت الأمة الإسلامية متمسكة بالإسلام كان في العلو والظهور، وملكت به مشارق الأرض ومغاربها، ولما تقاعست وتخاذلت وتنازعت وتباغضت صار الأمر بالعكس، صار لها الذل، فالآن أمة العرب يدعون اليهود إلى السلم، ويكررون ذلك، ويمدون أيديهم إلى دول النصارى لتساعدهم على السلم؛ لأننا لم نتمسك بالقرآن، فكنا أذلة نتوسل لأعدائنا أن يقع السلم بيننا وبين أعدائنا"[633].

فنزّل الآية تنزيلًا عكسيًا؛ حيث وصف حال الأمة الإسلامية اليوم الذي خالف معنى الآية، وتوقّع أن يتساءل أحد عن سبب ذل المسلمين اليوم، فقال: "فلو قال لنا قائل: نحن أمة القرآن ومع ذلك فالناس في ذل! قلنا: لأننا لم نتمسك بالقرآن، ولو تمسكنا بالقرآن لضمنّا لأنفسنا العلو والغلبة والظهور، لكن الأمر بالعكس، فالآن غالب المسلمين يلهثون وراء الدنيا، معرضين عن الدين"[634].

---

631. القرآن. الزخرف 43: 4.

632. القرآن. محمد 47: 35.

633. العثيمين. 1436هـ. *تفسير القرآن الكريم (سورة الزخرف)*. ص. 45- 46.

634. المرجع السابق. ص. 45- 46.

وهذا التنزيل الصحيح فيه إشارة إلى النظر في حال المسلمين اليوم، فالواقع يشهد على تخلّي كثير من المسلمين عن كتاب ربهم –وإن كانوا يُظهرون حبهم له–، ويظهر أثر ذلك عليهم؛ فقد أصبحوا يعيشون في حالة من الضعف والوهن، وفي تنزيل ابن عثيمين للآية دعوة للمسلمين بالرجوع إلى القرآن والتمسك به؛ وإلى ما تضمّنه من عقائد وشرائع، وأحكام وآداب، وإخبار عن الغيب، وامتثال أوامره واجتناب نواهيه، وتدبّره، والعمل به.

المطلب الثالث: الاستشفاء بالقرآن

بيّن ابن عثيمين أنّ الله ﷻ جعل القرآن مباركًا، فهو مبارك في تأثيره؛ مبارك في ثوابه، مبارك في آثاره، يؤثّر على القلب، ويُكسِبه خشية الله تعالى؛ لأنّ الله ﷻ قال: ﴿لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۚ﴾[635]، فلو كان القلب حيًا يكتسب الخشية من باب أولى؛ واستشهد بقول ابن عبد القوي رحمه الله:

وحافظ على درس القرآن فإنه *** يلين قلبًا قاسيًا مثل جلمد[636].

وقال في وصف واقعه: وما أكثر الذين يشكون قسوة قلوبهم اليوم؛ ولكن إذا أحسوا بقسوة القلب فعليهم بالقرآن، فالقرآن الكريم دواء لهم من كل مرض، سواء كان مرضًا قلبيًا، مثل الشبهات وإرادة السوء، وهو شفاء للمرض الجسمي أيضًا[637]، واستدلّ بالحديث الذي رواه أبو سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رضي الله عنه أَنَّ نَاسًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ أَتَوْا عَلَى حَيٍّ مِنْ أَحْيَاءِ العَرَبِ فَلَمْ يَقْرُوهُمْ، فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ، إِذْ لُدِغَ سَيِّدُ أُولَئِكَ، فَقَالُوا: هَلْ مَعَكُمْ مِنْ دَوَاءٍ أَوْ رَاقٍ؟ فَقَالُوا: إِنَّكُمْ لَمْ تَقْرُونَا، وَلاَ نَفْعَلُ حَتَّى تَجْعَلُوا لَنَا جُعْلًا، فَجَعَلُوا لَهُمْ

---

635. القرآن. الحشر 59: 21.

636. ابن مفلح. محمد بن مفلح بن محمد. د. ت. *الآداب الشرعية والمنح المرعية*. الرياض: عالم الكتب. ج.3. ص.950.

637. العثيمين.1436هـ. *تفسير القرآن الكريم (سورة الزخرف)*. ص. 13-14.

قَطِيعًا مِنَ الشَّاءِ، فَجَعَلَ يَقْرَأُ بِأُمِّ الْقُرْآنِ، وَيَجْمَعُ بُزَاقَهُ وَيَتْفِلُ، فَبَرَأَ فَأَتَوْا بِالشَّاءِ، فَقَالُوا: لاَ نَأْخُذُهُ حَتَّى نَسْأَلَ النَّبِيَّ ﷺ، فَسَأَلُوهُ فَضَحِكَ وَقَالَ: «وَمَا أَدْرَاكَ أَنَّهَا رُقْيَةٌ، خُذُوهَا وَاضْرِبُوا لِي بِسَهْمٍ»[638].

وعند تفسيره لسورة الفاتحة بيّن أنّ هذه السورة لها مميزات تتميز بها عن غيرها؛ وذكر منها أنها رقية: إذا قُرِئ بها على المريض شُفي بإذن الله، واستدل بالحديث السابق[639].

ففي تنزيله السابق علاج لمن يجد قساوة في قلبه، وهم كما وصفهم كثير فالقرآن علاج لهم من الأمراض القلبية والبدنية، كما قال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾[640] قال ابن القيم: والصحيح: أنّ (مِن) هنا، لبيان الجنس لا للتبعيض، فالقرآن هو الشفاء التام من جميع الأدواء القلبية والبدنية، وأدواء الدنيا والآخرة[641].

خلاصة المبحث:

1- تشخيص ابن عثيمين لما يعانيه مجتمعه من أمراض، كالذل والتأخّر، وقسوة القلب.

2- تنزيل الآيات على الواقع عند ابن عثيمين يتضمن الرعية والحكام أيضًا.

3- استشهاده بواقعة حدثت في عهد النبي ﷺ.

4- غلب على تنزيل ابن عثيمين في تدبر القرآن التنزيل العكسي.

---

[638] البخاري. 1422هـ. *صحيح البخاري*. كتاب الطب. باب الرقى بفاتحة الكتاب. ج.7. ص. 131. رقم الحديث: 5736. ومسلم. *صحيح مسلم*. كتاب السلام. باب جواز أخذ الأجرة على الرقية. ج4. ص. 1727. رقم الحديث: 2201.

[639] العثيمين. 2003م. *تفسير القرآن الكريم (جزء عم)*. ص. 7.

[640] القرآن. الإسراء 17: 82.

[641] ابن القيم. محمد بن أبي بكر بن أيوب. 1994. *زاد المعاد في هدي خير العباد*. بيروت: مؤسسة الرسالة. ط.27. ج.4. ص.322.

المبحث الخامس

تنزيل الآيات على الواقع في طلب العلم

تمهيد:

إنّ العلم الشرعي من أهم الأمور التي ينبغي على كل مسلم أن يسلك طريقه؛ فبالعلم يعرف المسلم ربه ﷻ، ويعرف الحلال والحرام، ويكفي أهل العلم شرفًا أنّ الله ﷻ استشهدهم على ما شهد به، فقال سبحانه: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ﴾[642]، ورفع الله أهل العلم فقال: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾[643]، ولأهمية العلم الشرعي فإنّ ابن عثيمين أولى الاهتمام به في تفسيره، وسأذكر تنزيله للآيات في هذا المجال وفقًا للمطالب التالية:

المطلب الأول: الحرص على طلب العلم

عند تفسير ابن عثيمين لقول الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِيٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ

---

642. القرآن. آل عمران 3: 18.

643. القرآن. المجادلة 58: 11.

أَيۡمَٰنُهُمۡ لِكَيۡلَا يَكُونَ عَلَيۡكَ حَرَجٞۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ٥٠﴾[644] ذكر تعليقًا طويلًا –أكثر من خمس وعشرين صفحة– خلاصته أنّ العلم يحتاج إلى تعب، فهو ليس بالأمر الهيّن، وربما يشقّ على طالب العلم حبسه لنفسه في طلب العلم في أول الأمر، لكنه إذا اعتاد حبس نفسه على العلم صار ذلك سجيّة له، وطبيعة له، وذكر تجربته في ذلك؛ فعندما حبس نفسه على العلم كان يفقد ذلك الحبس إذا تأخّر عنه.

وأوصى مجتمعه بالحرص على طلب العلم، والاجتهاد في ذلك، خاصة الشباب منهم؛ لأنّ الشباب إذا حفظ العلم لا ينساه، أما إذا تقادمت بهم السن فإنهم يدرسون اليوم وينسون غدًا –وإن كان الإنسان إذا تقدم في السن يكون فهمه أقدر وأوسع– لكن الحفظ يكون في الصِّغَر، وختم كلامه بنصيحة خاطب فيها طلاب العلم قائلًا: "فأنتم –إن شاء الله تعالى– تحرصون على طلب العلم، لا تظنوا أنكم في نزهة إلا نزهة واحدة وهي نزهة العلوم؛ لأنّ العلوم فيها من كل فاكهة زوجان؛ هذا فقه، وهذا حديث، وهذا تفسير، وهذا توحيد، وهذا نحو، وما شاء الله ثمرات متنوعة، فليكن نزهتكم هذا العلم"[645].

وكلامه هذا يجده من طَلَبَ العلم بصدق وإخلاص، فالعلم له لذّة يعرفها طلاب العلم، كما قال الشاطبي: "في العلم بالأشياء لذة لا توازيها لذة"[646]، ولذا فإنّ طلاب العلم يقضون في طلبه الأوقات الطويلة، وينفقون من أجله أموالهم، وربما يستأنسون بالكتب أكثر من الأهل والأولاد.

وتنزيله السابق للآية يجعلنا نحرص على غرس حب طلب العلم في نفوس أبنائنا من الصغر، فكما

---

644. القرآن. الأحزاب 33: 50.

645. العثيمين. 1436هـ. *تفسير القرآن الكريم (سورة الأحزاب)*. ص. 392– 393.

646. الشاطبي. 1997. *الموافقات*. ج.1. ص.86.

قيل: "العلم في الصغر كالنقش على الحجر"[647]، ولا يعني هذا أنّ كبير السنّ لا يستطيع الحفظ؛ فقد وجدنا كثيرًا من طلاب العلم طلبوا العلم في الكبَر، وحفظوا وفهموا، وعندما قال عمر: «تفقهوا قبل أن تسودوا» قال أبو عبد الله –يعني البخاري–: «وبعد أن تسودوا وقد تعلم أصحاب النبي ﷺ في كبر سنهم»[648]، فينبغي لطالب العلم أن لا يمنعه سنه من طلبه، فباب العلم مفتوح إلى آخر العمر.

المطلب الثاني: الصبر على طلب العلم

بعد بيان ابن عثيمين لأهمية حبس النفس على طلب العلم، ذكر فضل الصبر والاستمرار في طلب العلم، وعند تفسيره لقول الله ﷻ: ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ ۝٤٥﴾[649] أشار إلى أنّ الإنسان إذا صبر أدرك مناله، وإذا ملّ كسل، وفاته خير كثير، مستدلًا بحديث رسول الله ﷺ: «احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَلَا تَعْجَزْ»[650]، وذكر أنّ كثيرًا من الناس في زمننا هذا يبدأ بطلب العلم الشرعي، ثم لا يحصل مقصوده بسرعة، فيعجز، ويكلّ ويترك، فيضيع عليه وقته الأول، ثم تمضي حياته بلا فائدة، لكن إذا صبر وتذكّر أنه ليس بينه وبين مراده إلا امتداد الأيام فقط، فإنه سيستمرّ، ويحصل المقصود[651].

وابن عثيمين ينقل لنا كلامه هذا عن تجربته الشخصية، بعد أن لاحظ فتورًا وانقطاعًا عند بعض

---

647. البيهقي. أحمد بن الحسين بن علي. د. ت. *المدخل إلى السنن الكبرى*. الكويت: دار الخلفاء للكتاب الإسلامي. ص.375.

648. البخاري. 1422هـ. *صحيح البخاري*. كتاب العلم. باب الاغتباط في العلم والحكمة. ج.1. ص. 25.

649. القرآن. البقرة 2: 45.

650. مسلم. د. ت. *صحيح مسلم*. كتاب القدر. باب في الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة بالله وتفويض المقادير لله. ج.4. ص. 2052. رقم الحديث: 2664.

651. العثيمين. 1431هـ. *تفسير القرآن الكريم (سورة البقرة)*. ط.2. ج.1. ص. 163. ولمزيد من الفائدة في هذا المعنى انظر كتابه: كتاب العلم ص. 45- 47.

طلاب العلم، ويقع الانقطاع عند كثير من طلاب العلم، بسبب العجز والكسل، أو كثرة النسيان، أو بحجة خشية التقصير في العمل به، أو فتور الهمة، وقلة الصبر، وغير ذلك، فأراد ابن عثيمين أن يحفّز من حصل له الانقطاع في طلب العلم ويذكّرهم بالثمرة العظيمة للعلم الشرعي، الذي لا يكون تحصيله إلا بالصبر والتضحية، والسعي الحثيث، وينبغي تذكيرهم أيضًا بصبر العلماء على طلب العلم، وبذلهم في تحصيله أموالهم وأوقاتهم، ولو نُقِل كلامهم هنا لطال بنا المقام، لكن سأكتفي بما قاله الإمام ابن الجوزي ﵀ في وصف طريق العلم: "تأملت عجبًا، وهو أنّ كل شيء نفيس خطير يطول طريقه، ويكثر التعب في تحصيله، فإنّ العلم لما كان أشرف الأشياء، لم يحصل إلا بالتعب والسهر والتكرار، وهجر اللذات والراحة"[652].

المطلب الثالث: التواضع في طلب العلم

نعيش في هذا العصر فترة انفتاح علمي وثقافي، خاصة مع توفّر وسائل التواصل وسهولة نقل المعلومات، والملاحظ عند بعض الناس غياب التواضع العلمي، وله صور كثيرة منها: مسابقة فئة من الناس في الإجابة عن السؤال الشرعي على الرغم من وجود من هو أكثر منهم علمًا، ونقد الآخرين والتقليل منهم، والتمسك بالرأي وعدم الاعتراف بالخطأ، وغير ذلك.

وبعد إدراك ابن عثيمين لهذه الظاهرة ناسب أن يعالجها بقول الله ﷻ: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾﴾[653] فوقف عند معنى الاستكبار في الآية فقال: "فمن الناس مَن إذا قال قولًا لا يمكن أن يتنازل عنه ولو بان الحق، وهذا نوع من الاستكبار، والواجب أن تعرف نفسك وأنك بشر، وأنه يفوتك العلم إما نسيانًا وإما جهلًا،

---

[652]. ابن الجوزي. جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن. 2004م. *صيد الخاطر*. دمشق: دار القلم. ص.281.

[653]. القرآن. السجدة 32: 15.

ويفوتك أيضًا الوصول إلى الغاية، فقد يكون عندك علم، لكن ينقصك التفكير والتأمل والجمع بين الأدلة وما أشبه ذلك، فتحتاج إلى أن تتيقّظ"[654].

فبدأ بعرض المشكلة وهي: التمسك بالرأي حتى وإن ظهر الحق، وهذا في الحقيقة نوع من التكبر على العلم، وقد "كان أئمة السلف المجمع على علمهم وفضلهم يقبلون الحق ممن أورده عليهم وإن كان صغيراً، ويوصون أصحابهم وأتباعهم بقبول الحق إذا ظهر في غير قولهم"[655]، ثم ذكر العلاج: وهو معرفة طبيعة النفس البشرية التي يعتريها النسيان والجهل، وأخذ هذا من قوله تعالى: ﴿إِذَا ذُكِّرُواْ﴾ في الآية نفسها، فالإنسان يطرأ عليه الجهل والنسيان، ولذلك يجب عليه أن يتذكر ذلك دائمًا، ويقف مع نفسه وقفة جادّة يحاسبها ويذكّرها بأنه ما أوتي من العلم إلاّ قليلًا[656]، وهذا يجعله لا يعتدّ برأيه، ولا يردّ الحق إذا جاءه، فإذا تحقق ذلك ستُحل مشكلة من مشاكل المجتمع، وهي قبول الرأي الآخر إذا كان صحيحًا، فقد قبل رسول ﷺ رأي الحباب بن المنذر في غزوة بدر عندما قال: يا رسول الله، أرأيت هذا المنزل، أمنزلا أنزلكه الله، ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه؟ أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ قال: «بل هو الرأي والحرب والمكيدة»، قال: يا رسول الله، فإن هذا ليس بمنزل، فانهض بالناس حتى نأتي أدنى ماء من القوم- قريش- فننزله ونغور- أي نخرب- ما وراءه من القلب، ثم نبني عليه حوضا، فنملأه ماء، ثم نقاتل القوم، فنشرب ولا يشربون، فقال رسول الله ﷺ: «لقد أشرت بالرأي»[657].

المطلب الرابع: آداب طالب العلم مع شيخه

---

654. العثيمين. 1436هـ. *تفسير القرآن الكريم (سورة السجدة)*. ص.83.

655. ابن رجب. زين الدين عبد الرحمن بن أحمد. 1988م. *الفرق بين النصيحة والتعيير*. عمان: دار عمار. ط.2. ص.8.

656. العثيمين. 1436هـ. *تفسير القرآن الكريم (سورة السجدة)*. ص.83.

657. المباركفوري. صفي الرحمن. د. ت. *الرحيق المختوم*. بيروت: دار الهلال. ص.191.

لا غِنى لطالب العلم في حياته العلمية عن شيخ أو معلّم يأخذ العلم عنه، ولأنّ العلماء لهم مكانة في الإسلام، كما قال سبحانه: ﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ﴾[658] "فإنّ العلم يرفع الله به صاحبه فوق العباد درجات"[659]، لذا وجب احترام العلماء وإجلالهم، خاصة من الطلاب الذين يتلقّون العلم عنهم، وقد ذكر لنا الله ﷻ في كتابه قصة موسى عليه السلام مع الخضر وفيها ما يتعلق بأدب المتعلم مع معلمه، وذكر لنا ابن عثيمين بعض الفوائد منها عند تفسيره لقول الله ﷻ: ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمۡتَ رُشۡدٗا ٦٦ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا ٦٧ وَكَيۡفَ تَصۡبِرُ عَلَىٰ مَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ خُبۡرٗا ٦٨ قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرٗا وَلَآ أَعۡصِي لَكَ أَمۡرٗا ٦٩ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعۡتَنِي فَلَا تَسۡـَٔلۡنِي عَن شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ أُحۡدِثَ لَكَ مِنۡهُ ذِكۡرٗا ٧٠﴾[660] معلّقًا على تأدُّب موسى عليه السلام مع الخضر؛ حيث قال له موسى ﴿هَلۡ أَتَّبِعُكَ﴾ وهذا عرض لطيف يدلّ على أدب موسى عليه السلام وتواضعه، على الرغم من أنه أفضل من الخضر، إلا أنه تلطّف معه لأنه سيأخذ منه علمًا لا يعلمه هو، ثم قال: "وفي هذا دليل أنّ على طالب العلم أن يتلطف مع شيخه ومع أستاذه، وأن يعامله بالإكرام"[661].

ثم استنبط أدبًا آخر لطالب العلم وهو: عدم التعجّل في الردّ على المعلم، فقد وجّه الخضر لموسى عليه السلام هذا الأدب فقال: ﴿قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعۡتَنِي فَلَا تَسۡـَٔلۡنِي عَن شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ أُحۡدِثَ لَكَ مِنۡهُ ذِكۡرٗا ٧٠﴾[662]،

---

658. القرآن. المجادلة 58: 11.

659. السعدي. عبد الرحمن بن ناصر. 2000 م. *تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان*. بيروت: مؤسسة الرسالة. ص. 263.

660. القرآن. الكهف 18: 66- 70.

661. العثيمين. 1423هـ. *تفسير القرآن الكريم (سورة الكهف)*. ص.113.

662. القرآن. الكهف 18: 70.

وربط هذا الأدب بواقع طلبة العلم، فنبّههم إلى الانتظار وعدم التعجّل في الرد على المعلم حتى يُحدِث له بذلك ذكرًا[663].

ولعلّ ابن عثيمين ﵀ وجد من طلابه مَن لا يتأدّب بآداب طالب العلم، فناسب أن يذكّرهم بهذه الآية، وقد أدركنا في واقعنا من يحتاج إلى مثل هذه الآداب، خاصة مع افتقار بعض طلبة العلم إلى التواضع مع من يعلّمهم، وعدم التأنّي والصبر إذا تأخر عليهم المعلم بالرد، ورأيت هذا كثيرًا في تعامل طلاب الجامعة مع مشايخهم ممن يُعدّون من علماء الأمة.

المطلب الخامس: تبليغ العلم

إنّ الطريق إلى معرفة الله ﷻ ومعرفة شريعته هو العلم الشرعي، وقد أشار ابن عثيمين إلى أهمية تبليغ العلم الشرعي عند تفسيره لقول الله ﷻ: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾[664]، وبيّن أنه يدخل في الأسوة الحسنة الاقتداء بالنبي ﷺ في الدعوة إلى دين الله ﷻ، فالمجتمع بحاجة ماسّة إلى ذلك؛ وذكر لنا حال بعض أفراد المجتمع في وقتنا الحالي؛ سئموا الحياة السابقة، ورغبوا في التغيير، ويُخشى عليهم التغيير إلى شيء سيئ، ولذلك حثّ طلبة العلم إلى بثّ الوعي بين المسلمين، وتوجيههم؛ لأنهم بحاجة إلى هداية ودلالة، فقال: "وبهذا نعرف أنه ينبغي لطالب العلم أن يكون له نشاط في مجتمعه، لا نسخة كتاب فقط، بمعنى أن يكون محرّكًا لضمائر الناس ومشاعرهم وتوجيههم، ويكون لديه عزيمة في إصلاح الخلق، حتى لا يكون مجرد نسخة"[665].

---

663. العثيمين. 1423هـ. *تفسير القرآن الكريم (سورة الكهف)*. ص.115. ولمزيد من الفائدة في معرفة أدب الطالب مع شيخه، انظر: العثيمين. محمد بن صالح.1434هـ. *شرح حلية طالب العلم*. الرياض: دار العاصمة للنشر والتوزيع. ص.115- 134.

664. القرآن. الأحزاب 33: 21.

665. العثيمين. 1436هـ. *تفسير القرآن الكريم (سورة الأحزاب)*. ص.163.

وتبليغ العلم ونشره بين الناس يُعدّ من التعاون على البر والتقوى، ومن التواصي بالحق، وهو من أفضل أنواع الجود، وقد أكّد هذا المعنى ابن القيم ﷺ فقال: "الجود بالعلم وبذله، وهو من أعلى مراتب الجود، والجود به أفضل من الجود بالمال؛ لأنّ العلم أشرف من المال"[666]، وأصبح نشر العلم في زمننا من أيسر الأمور، مع كثرة وسائل التواصل الاجتماعي، ومواقع الانترنت ومنتدياته.

خلاصة المبحث:

1- ذكر ابن عثيمين تجربته الشخصية في طلب العلم عند تنزيل الآية؛ تحفيزًا للطلبة ولأخذ الفائدة منها.

2- كان ابن عثيمين يعرض المشكلة الواقعة في المجتمع ثم ينزّل الآية على الواقع؛ ليستنبط منها العلاج.

3- ظهر حِرْصه على طلب العلم وحثّ الناس عليه في تنزيله للآيات في هذا الجانب.

[666]. ابن القيم. 1996م. *مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين*. ط.3. ج.2. ص.279.

المبحث السادس

تنزيل الآيات على الواقع في الزهد والرقائق

تمهيد:

إنّ المتأمل في واقعنا اليوم يجد كثيرًا من الناس يعيشون في غفلة عن الآخرة، وتكالبٍ على الدنيا، وهذا له مفاسد كثيرة على الفرد والمجتمع؛ منها: فساد القلوب، وضياع الأعمار، والذلّ والهوان، وكان ابن عثيمين يسعى لتغيير هذا الواقع؛ وتجلى ذلك في تفسيره، من خلال تنزيل آيات القرآن عليه. وقد تتبعتُ المواضع التي نزّل فيها ابن عثيمين الآيات على الواقع في هذا الجانب، وعرضت ذلك حسب المطالب الآتية:

المطلب الأول: الغفلة والاغترار بالدنيا

وصف ابن عثيمين حال كثير من المسلمين اليوم، وما هم فيه من لهوٍ وغفلة، وذلك عند تفسيره لقول الله ﷻ: ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾[667]، فقال: "والعجب أننا مغترّون بها، ومتمسّكون بها، مع أنّ أكدارها وهمومها وغمومها أكثر بكثير من صفوِها وراحتها"[668]، وعند تفسيره لقول الله ﷻ: ﴿وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَٱلۡأٓخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلۡمُتَّقِينَ ٣٥﴾[669]، بيّن أنّ متاع هذه الدنيا زائل، وينبغي على المؤمن أن لا يُعلّق قلبه بمظاهرها؛ لأنه إذا فعل ذلك

---

667. القرآن. الكهف 18: 45.

668. العثيمين. 1423هـ. *تفسير القرآن الكريم (سورة الكهف)*. ص.78.

669. القرآن. الزخرف 43: 35.

هلك، ثم أرشد الناس إلى الاقتداء بالنبي ﷺ فإنه كان إذا رأى من الدنيا ما يعجبه يقول: «لا عَيْشَ إِلَّا عَيْشُ الآخِرَةِ»[670]، وعلّق على هذا الحديث مخاطبًا العقول، فقال: والله هذا هو الحق، أما عيش الدنيا فإنه مهما طاب لك فهو محفوف بنكد، ثم إذا حصلته هل سيبقى لك هذا أو لا يبقى؟ هل ستبقى له أو لا تبقى؟ ولا بد من أحد الأمرين: إما تموت وتتركه، وإما أن يهلك وأنت حي[671].

وهذا تنزيل صريح للآية؛ صرّح فيه بواقع المسلمين اليوم، وما يعيشون فيه من غفلة، ولعلّه أراد به تنبيه مجتمعه من التعلق بالدنيا، -فقد كانوا يعيشون في رخاء وازدهار-[672]، وانغمس كثير منهم بحبها، وهذا الانغماس يؤدي إلى قسوة القلب، والتكاسل عن الطاعات، وربما أدّى إلى ارتكاب الشهوات المحرّمة، فذكّرهم ابن عثيمين بأنّ هذه الدنيا فانية، ولا عيش إلا عيش الآخرة، وفي هذا تحفيز لهم على العمل للآخرة، وعدم التعلق بهذه الدنيا الفانية.

المطلب الثاني: تذكر اليوم الآخر

بعد تذكير ابن عثيمين مجتمعه بعدم التعلّق بالدنيا، حثّهم هنا على تذكّر اليوم الآخر والاستعداد له؛ مستنبطًا ذلك من قول الله ﷻ: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ۝٤٠﴾[673]، فقال: "ينبغي تذكير الناس بيوم المعاد، ووجه الدلالة: أنّ ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾ متعلق

---

670. البخاري. 1422هـ. *صحيح البخاري*. كتاب مناقب الأنصار. باب دعاء النبي ﷺ أصلح الأنصار والمهاجرة. ج.5. ص.34. رقم الحديث: 3795، مسلم. *صحيح مسلم*. كتاب الجهاد والسير. باب غزوة الأحزاب وهي الخندق. ج 3. ص 1431. رقم الحديث: 1804.

671. العثيمين. 1436هـ. *تفسير القرآن الكريم (سورة الزخرف)*. ص.145- 146.

672. راجع الحالة الاقتصادية في عصر ابن عثيمين.

673. القرآن. سبأ 34: 40.

بمحذوف تقديره: (اذكر يوم يحشرون)، وهذا يشمل تذكير النفس"[674]، ويدعو الناس إلى تذكّر اليوم الآخر، وما وراءه من حساب وعقاب، وأخذ العِبرة في الذين انتقلوا من هذه الدنيا، وتركوا أموالهم وأولادهم، ذاهبين إلى الدار الآخرة[675].

وعند تفسيره لقول الله ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ٧﴾[676]، حثّ المؤمنين على الاستعداد لذلك اليوم والعمل له، قائلًا: "فإذن تذكر -يا أخي- عندما تستولي على قلبك الغفلة، هذا اليوم الذي تُحشر فيه أنت وسائر الخلق، حافيًا عاريًا أغرل[677]، ليس عندك مال ولا بنون، ولا أحد يحميك، تذكر هذا، فإذا تذكرته فسوف تعمل لهذا اليوم"[678].

وهذا التنزيل العكسي الذي يشير فيه إلى وجوب مخالفة المؤمن لصفات الكفار، فيه إرشاد إلى السبب الذي يُعين على العمل لليوم الآخر، وهو تذكير النفس به، واليقظة الدائمة، وهذا حلّ عمليّ يؤدي إلى اليقظة الدائمة، والاستعداد لذلك اليوم بالإكثار من العمل الصالح، وإيثاره على الدنيا.

المطلب الثالث: إضاعة الوقت باللهو واللعب

وصف ابن عثيمين حال الشباب في عصره؛ عند تفسيره لقول الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا نَسُواْ يَوۡمَ ٱلۡحِسَابِ ٢٦﴾[679]، فقد أُغرِق كثير منهم بالملاهي بأنواعها،

---

[674] العثيمين. 1436هـ. *تفسير القرآن الكريم (سورة سبأ)*. ص.248.

[675] العثيمين. 1436هـ. *تفسير القرآن الكريم (سورة سبأ)*. ص.248.

[676] القرآن. فصلت 41: 7.

[677] أغرل: وهو الأقلف والأغلف الذي لا يختن. الحميدي. محمد بن فتوح بن عبد الله. 1995. *تفسير غريب ما في الصحيحين البخاري ومسلم*. القاهرة: مكتبة السنة. ص. 159.

[678] العثيمين. 1437هـ. *تفسير القرآن الكريم (سورة فصلت)*. ص.48.

[679] القرآن. ص 38: 26.

وكأنهم خُلقوا لهذا اللهو، لا يتكلمون إلا به، ومن فاز فيه ومن لم يفُز، حتى نسوا يوم الحساب[680].

ثم نبّههم بأنّ هذا من لعب أعداء المسلمين بالمسلمين؛ حيث يغرونهم بوسائل الترفيه ليُلهوهم عما خُلقوا له من عبادة الله، ولينغمسوا فيها فتصبح همهم، فينسون الغاية التي خُلقوا لها[681]، وذلك عند تفسيره لقول الله ﷻ: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾﴾[682].

وبيّن خطأ ما يدعوا إليه الناس من الرفاهية والأمن، عند تفسيره لقول الله ﷻ: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾[683]، فقال: "في الحقيقة أنّ الرفاهية إذا كانت للبدن وحده فهي فساد، ولا يدوم هذا أبدًا، ولا يمكن أن يدوم، على أنّ الرفاهية المطلقة للبدن لا بدّ أن تكون مصحوبة بقلق في القلب؛ لأنّ الله تعالى ضَمِن الحياة الطيبة لمن قرن بين العقيدة والعمل، فقال: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾[684]، حياة طيبة في الدنيا، وأجر حسن في الآخرة"[685].

ولعلّ ابن عثيمين ﵀ يقصد بهذا التنزيل التركيز على الترفيه البدني، بحيث يجعله الإنسان أكبر همه،

---

680. العثيمين. 1425هـ. *تفسير القرآن الكريم (سورة ص)*. ص. 129.

681. العثيمين. 1426هـ. *تفسير القرآن الكريم (سورة آل عمران)*. ج.2. ص.585- 586.

682. القرآن. آل عمران 3: 196- 197.

683. القرآن. النمل 27: 14.

684. القرآن. النحل 16: 97.

685. العثيمين. 1436هـ. *تفسير القرآن الكريم (سورة النمل)*. ص.93.

مع نسيان الآخرة، فقد ذكر ذلك عند تفسيره لقول الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا نَسُواْ يَوۡمَ ٱلۡحِسَابِ ٢٦﴾[686]، فقسّم اللهو إلى قسمين: لهو محرم باطل ليس فيه خير، ولهو فيه ضياع للوقت بدون تحريم، ثم عقّب على ذلك بقوله: "لكنّ كل لهو يصدّ عن سبيل الله يُنسي يوم الحساب"[687].

وقد يكون في تنزيله السابق نوعًا من التشديد والتضييق؛ فقد أباح لنا الإسلام إعطاء النفس حقها من الترويح في المباحات، التي لا تشغل عن طاعته، وقد ورد في الحديث: عَنْ حَنْظَلَةَ الْأُسَيِّدِيِّ، قَالَ: – وَكَانَ مِنْ كُتَّابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: لَقِيَنِي أَبُو بَكْرٍ، فَقَالَ: كَيْفَ أَنْتَ؟ يَا حَنْظَلَةُ قَالَ: قُلْتُ: نَافَقَ حَنْظَلَةُ، قَالَ: سُبْحَانَ اللهِ مَا تَقُولُ؟ قَالَ: قُلْتُ: نَكُونُ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، يُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ، حَتَّى كَأَنَّا رَأْيُ عَيْنٍ، فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، عَافَسْنَا الْأَزْوَاجَ وَالْأَوْلَادَ وَالضَّيْعَاتِ، فَنَسِينَا كَثِيرًا، قَالَ أَبُو بَكْرٍ: فَوَاللهِ إِنَّا لَنَلْقَى مِثْلَ هَذَا، فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ، حَتَّى دَخَلْنَا عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، قُلْتُ: نَافَقَ حَنْظَلَةُ، يَا رَسُولَ اللهِ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ «وَمَا ذَاكَ؟» قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ نَكُونُ عِنْدَكَ، تُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ، حَتَّى كَأَنَّا رَأْيُ عَيْنٍ، فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِكَ، عَافَسْنَا الْأَزْوَاجَ وَالْأَوْلَادَ وَالضَّيْعَاتِ، نَسِينَا كَثِيرًا فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنْ لَوْ تَدُومُونَ عَلَى مَا تَكُونُونَ عِنْدِي، وَفِي الذِّكْرِ، لَصَافَحَتْكُمُ الْمَلَائِكَةُ عَلَى فُرُشِكُمْ وَفِي طُرُقِكُمْ، وَلَكِنْ يَا حَنْظَلَةُ سَاعَةً وَسَاعَةً» ثَلَاثَ مَرَّاتٍ[688].

"أي أريحوها بعض الأوقات من مكابدة العبادات بمباح لا عقاب فيه ولا ثواب"[689]، فيكون

---

[686]. القرآن. ص 38: 26.

[687]. العثيمين. 1425هـ. *تفسير القرآن الكريم (سورة ص)*. ص.129.

[688]. مسلم. د. ت. *صحيح مسلم*. كتاب التوبة. باب فضل دوام الذكر والفكر في أمور الآخرة والمراقبة وجواز ترك ذلك في بعض الأوقات والاشتغال بالدنيا. ج.4. ص. 2106. رقم الحديث: 2750.

[689]. المناوي.1356. فيض القدير شرح الجامع الصغير. ج.4. ص. 40.

للشخص "ساعة لقوة اليقظة، وساعة للمباح وإن أوجبت بعض الغفلة؛ وهذا لأنّ الإنسان لو حقق مع نفسه ما بقي، فلا بدّ للمتيقظ من التعرض لأسباب الغفلة ليعدل ما عنده"[690].

المطلب الرابع: تفقّد القلوب والعناية بها

وصف ابن عثيمين حال بعض الغافلين في عصره عند تفسيره لقول الله ﷻ: ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾﴾[691]، فقال: "فأكثر الناس اليوم حريصون على مداواة الأبدان التي مآلها أن تكون جيفة يأكلها الدود، دون القلوب التي عليها مدار السعادة في الدنيا والآخرة، فتجد الإنسان يمرض قلبه، وربما يصل إلى درجة الاحتضار، ولكنه لا يبالي به، فإذا أُصيب بشوكة في بدنه هرع إلى الأطباء، ولو حصل في ذلك مشقة وتعب"[692]. وهذا التنزيل فيه تعجّب ممن يعلم أنّ مدار سعادته في الدنيا والآخرة سلامة قلبه، لكنه لا يهتم به، ولا يعبأ بمرضه، في حين أنه يهتم ببدنه إذا مرض، ويسرع في علاجه، –ولا مانع من اهتمام الإنسان بمداواة جسده إذا مرض، بل إن التداوي مشروع، وقد ورد ذلك في كثير من الأحاديث، منها حديث أُسَامَةَ بْنِ شَرِيكٍ، قَالَ: قَالَتِ الأَعْرَابُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَلاَ نَتَدَاوَى؟ قَالَ: نَعَمْ، يَا عِبَادَ اللهِ تَدَاوَوْا، فَإِنَّ اللَّهَ لَمْ يَضَعْ دَاءً إِلّا وَضَعَ لَهُ شِفَاءً،..."[693] وغيره من الأحاديث– وكما أنّ الجسد يحتاج إلى التداوي، فكذلك القلوب التي يناط بصلاحها صلاح الجسد كله، كما قال رسول ﷺ: «أَلاَ وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً: إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ

---

690. ابن الجوزي. جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن. د. ت. *كشف المشكل من حديث الصحيحين*. الرياض: دار الوطن. ج.4. ص. 229.

691. القرآن. الأحزاب 33: 12.

692. العثيمين. 1436هـ. *تفسير القرآن الكريم (سورة الأحزاب)*. ص.112.

693. الترمذي. 1998م. *سنن الترمذي. أبواب الطب*. باب ما جاء في الدواء والحث عليه. ج.3. ص. 451. رقم الحديث: 2038. ورواه أبو داود. د. ت. *سنن أبي داود*. كتاب الطب. باب الرجل يتداوى. ج.6. ص.5. رقم الحديث: 3855. وهو حديث صحيح. صحح إسناده محقق المسند. ج 30. ص 398. رقم الحديث: 18455.

كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ، أَلاَ وَهِيَ القَلْبُ»[694].

ثم وقف ابن عثيمين عند قول الله ﷻ: ﴿لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٖ ١٩﴾[695] مبيّنًا أنّ القلوب لها أحوال مختلفة؛ فتارةً يتعلق القلب بالدنيا، وتارةً يتعلق بشيء منها؛ كالمال، أو النساء، أو القصور والمنازل، أو المركوبات والسيارات، فيُصبح ذلك أكبر همه، وتارةً يكون مع الله ﷻ، ولهذا يجب علينا جميعًا أن نراجع قلوبنا كل ساعة، بل كل لحظة، ونسأله: أين صُرفت أيها القلب؟ أين ذهبت؟ لماذا تنصرف عن الله؟ لماذا تلتفت يمينًا وشمالًا؟ لأنّ الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم[696].

ولما رأى ابن عثيمين تعلق القلوب بالدنيا من أموال ومساكن ومركوبات دعا بمحاسبة الإنسان لقلبه؛ وكأنه شريك يحاسبه، وبذلك تصلح القلوب، وينجو أصحابها.

المطلب الخامس: المبادرة بالأعمال الصالحة

بعد بيان ابن عثيمين لهوان الدنيا وحقارتها، حثّ هنا على المبادرة بالأعمال الصالحة، ووعظ الناس وذكّرهم بما يرونه في واقعهم، وذلك عند تفسيره لقول الله ﷻ: ﴿كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَهَا لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوۡ ضُحَىٰهَا ٤٦﴾[697]، فقال: "كم من إنسان خرج يقود سيارته ورُجِع به محمولًا على الأكتاف، وكم من إنسان خرج من أهله يقول هيئوا لي طعام الغداء أو العشاء ولكن لم يأكله، وكم من إنسان لبس قميصه وَزَرَّ أزرّته ولم يفكّها إلا الغاسل يغسله، وهذا أمر مشاهد لكل أحد بحوادث بغتة"[698].

---

[694]. البخاري. 1422هـ. *صحيح البخاري*. كتاب الإيمان. باب فضل من استبرأ لدينه. ج.1. ص. 20. رقم الحديث: 52.، مسلم. *صحيح مسلم*. كتاب المساقاة. باب أخذ الحلال وترك الشبهات. ج 3. ص 1219. رقم الحديث: 1599.

[695]. القرآن. الانشقاق 84: 19.

[696]. العثيمين. 2003م. *تفسير القرآن الكريم (جزء عم)*. ص.118- 119.

[697]. القرآن. النازعات 79: 46.

[698]. العثيمين. 2003م. *تفسير القرآن الكريم (جزء عم)*. ص.57.

ثم دعا الناس إلى التفكّر بحالهم عند الموت، ورغّبهم بالمبادرة بالعمل الصالح؛ عند تفسير قول الله ﷻ: ﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ١٨٥﴾[699]، فقال: فإذا كان الإنسان ميتًا ولا محالة وهو لا يدري متى يموت، فينبغي عليه ألّا يُمهل ولا يُؤخّر، فإنّ التأخير له آفات، وكثيرًا ما يقول الإنسان: أنا سأفعل هذا غدًا ولكن يتهاون، ثم يأتي غد وما بعده، ويضيع عليه الوقت[700].

وهذا التنزيل يدلّ على اهتمام ابن عثيمين بالوعظ الذي يقوم على التبصير والتذكير، فتذكّر الموت يحفّز على التوبة، والمبادرة بالأعمال الصالحة، ويدلّ على ذلك حديث رسول الله ﷺ «أَكْثِرُوا ذِكْرَ هَاذِمِ اللَّذَّاتِ»[701].

خلاصة المبحث:

1- أنّ التنزيل الصريح في جانب الرقائق هو الغالب في تنزيل ابن عثيمين للآيات على الواقع.

2- قدرة ابن عثيمين على تقريب معاني الآيات، وإيصال الموعظة إلى المتلقّين بطريقة سهلة ومبسّطة، تناسب العامة والخاصة.

3- إتيان ابن عثيمين بموعظة قصيرة قبل تنزيل الآية على الواقع؛ ليكون أدعى في انتفاع القلب.

---

699. القرآن. آل عمران 3: 185.

700. العثيمين. 1426هـ. *تفسير القرآن الكريم (سورة آل عمران)*. ج.2. ص.513.

701. الترمذي. 1998م. *سنن الترمذي*. أبواب الزهد. باب ما جاء في ذكر الموت. ج.4. ص. 553. رقم الحديث: 2307. والنسائي. 2001. *السنن الكبرى*. كتاب الجنائز. باب ذكر الموت. ج.4. ص. 4. رقم الحديث: 1484. وهو حديث صحيح. صحح إسناده محقق المسند. ج 8. ص35. رقم الحديث: 7912.

المبحث السابع

تنزيل الآيات على الواقع في القضايا الاجتماعية

تمهيد:

أنزل الله القرآن الكريم وجعل فيه مبادئ عامة، وأسسًا كاملة، كفيلة بسعادة المجتمع المسلم، فقد نظّم علاقة الفرد بأسرته، وعلاقته بمجتمعه؛ ليتمكن المسلمون من العيش في مجتمع يسوده الحب والاحترام، ويحيا أفراده حياة كريمة في ظل تعاليم الإسلام، ونحن اليوم في أمس الحاجة إلى الرجوع إلى آيات القرآن وتطبيقها على واقعنا؛ لكي ننعَم بحياة فاضلة كحياة الصحابة رضوان الله عليهم الذين ضربوا لنا أروع الأمثلة في حياتهم الاجتماعية.

ولم يُغفل ابن عثيمين ذِكْر القضايا الاجتماعية في تفسيره، فقد وقف على عدد من الآيات ونزّلها على واقع المسلمين، ويُمكن عرضها ضمن المطالب الآتية:

المطلب الأول: ظاهرة اجتماع الشباب في المجالس والأندية

تُعدّ فئة الشباب من أهم الفئات في المجتمع؛ لما لها من دور مهم في صناعة المستقبل، وقد اعتاد الشباب في بعض الدول العربية على إقامة مجالس وأندية؛ يجتمعون فيها ويقضون وقتًا طويلًا يناقشون فيه احتياجاتهم ومشاكلهم، ويضعون خططًا لمستقبلهم، ولكن بعض هذه المجالس تقتصر على اللهو واللعب، وضياع الوقت دون جدوى، فأراد ابن عثيمين معالجة هذه الظاهرة الاجتماعية، فناسب أن ينزّل قول الله ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشۡهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغۡوِ مَرُّواْ كِرَامٗا ٧٢﴾[702]، فوصف حال بعض

---

[702]. القرآن. الفرقان25: 72.

المجالس بأنّ الأفعال التي تُقام فيها قد تكون غير مَرْضِيّة، وربما أسّسها بعض الناس للصدّ عن دين الله، فيكون ضررها أكثر من نفعها، وبعض الناس يريد من المجالس التسلي فقط، لا يريد معنى وراء ذلك، وهذا –كما يقول– فاته خير كثير.

وحاول ابن عثيمين المساهمة في تغيير هذا الواقع، فكان يبيّن للناس أنّ ترك مَن في هذه المجالس وترك الاختلاط بهم مشكلة؛ حيث نتركهم والشياطين، ولذا يجب نصحهم، وتوجيههم، فإذا طُلب من أحد طلاب العلم أن يُلقي عندهم محاضرة فليذهب، وليكن عمله خالصًا لله ﷻ، ويحثّهم على صرف أوقاتهم في أشياء مفيدة، كتعلم الرماية والسباحة، وكل ما فيه فائدة للمجتمع[703].

وفي قول ابن عثيمين: (أنّ بعض الناس يؤسس هذه المجالس للصدّ عن سبيل الله) نظر؛ فالمجتمع الذي كان يعيش فيه كل أفراده من المسلمين، وغالبًا يكون اجتماعهم في المجالس للتسلية، أو مناقشة مواضيع عامة أو خاصة، وليس للصدّ عن سبيل الله، ولا زالت هذه المجالس قائمة إلى يومنا في دول الخليج، ولم نسمع أبدًا أنّ مَن يجلس فيها يجتمعون للصدّ عن سبيل الله الذي ورد في القرآن في سياق الحديث عن الكفار أو المنافقين، كما في قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ ۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾[704].

المطلب الثاني: اختيار الصحبة الصالحة

إنّ المتأمل لواقع شبابنا اليوم يجد انحرافًا ملحوظًا بينهم، ومن أهم الأسباب التي أدّت إلى هذا الانحراف هو الصحبة السيئة؛ لأنّ الصاحب ساحب، وصاحب السوء يجرّ صاحبه إلى الشر والفساد؛

---

703. العثيمين. 1436هـ. *تفسير القرآن الكريم (سورة الفرقان)*. ص.317-320.

704. القرآن. الحج 22: 25.

فيصبح وبالًا على أهله ومجتمعه، وقد أولى ابن عثيمين هذه القضية اهتمامًا واضحًا في تفسيره للآيات، فقد على آيات عدّة نزّلها على واقعه تحدّث فيها عن الصحبة، منها قول الله ﷻ: ﴿وَمَن يَعۡشُ عَن ذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ نُقَيِّضۡ لَهُۥ شَيۡطَٰنٗا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٞ ٣٦﴾[705]، حيث بيّن أثر الصحبة السيئة فقال: "والمشاهَد الآن في الغالب أنّ المنحرف هو الذي يؤثر على المستقيم"[706]، وهذا الكلام ليس على إطلاقه؛ فالناس يتفاوتون في التأثّر من بعضهم، فقد يؤثر الفاسد على الصالح أو العكس، فإنّ كثيرًا من الصالحين يؤثرون على أصدقائهم من أصحاب السوء، فيأخذونهم معهم إلى المسجد، ويأمرونهم بالمعروف وينهونهم عن المنكر.

وعند تفسيره لقول الله ﷻ: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعۡبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ إِنَّهَا كَانَتۡ مِن قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ ٤٣﴾[707]، أشار إلى أنّ البيئة لها تأثير؛ فقد أثّروا على هذه المرأة –ملكة سبأ– فصارت كافرة تعبد مع الله غيره، فناسب أن ينزّل هذه الآية على الواقع، وحذّر من مصاحبة الأشرار وإن كانوا من الأقارب، فقال: "إذا كان لهم حق عليك بالقرابة فأعطهم حقهم الذي لهم، ولكن لا تكن مخالطًا لهم ومصاحبًا لهم؛ لأنّ النبي ﷺ قال: «الْمَرْءُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ، فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلْ»[708]، وهذا شيء واقع يشهد له التاريخ السابق والحديث"[709].

وحثّ على الصحبة الصالحة عند تفسيره لقول الله ﷻ: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١١٤﴾[710]،

---

705. القرآن. الزخرف43: 36.

706. العثيمين. 1436هـ. *تفسير القرآن الكريم (سورة الزخرف)*. ص.149.

707. القرآن. النمل 27: 43.

708. الترمذي. 1998م. *سنن الترمذي*. أبواب الزهد. ج.4. ص. 176. رقم الحديث: 2378، ورواه أبو داود. د. ت. *سنن أبي داود*. كتاب الأدب. باب من يؤمر أن نجالس. ج.4. ص.259. رقم الحديث: 4833، ورواه ابن حنبل. 2001. *مسند الإمام أحمد بن حنبل*. مسند أبي هريرة ﷺ. ج.14. ص.142. رقم الحديث:8417. وهو حديث صحيح. صحح إسناده محقق المسند. ج 8. ص 130. رقم الحديث: 8015.

709. العثيمين. 1436هـ. *تفسير القرآن الكريم (سورة النمل)*. ص.239.

710. القرآن. آل عمران 3: 114.

فبيّن أنّ الآية تشير إلى صحبة الأخيار وأنّ صحبتهم من أسباب الصلاح[711].

والأمّة الإسلامية اليوم في أمسّ الحاجة إلى هذا التذكير؛ لأنّ الصحبة أصبحت لا تقتصر على من نقابلهم ونجلس معهم؛ بل أصبح الأصدقاء في مواقع التواصل الاجتماعي، وقد يقضي بعض الناس معهم وقتًا طويلًا، ويكون لهم تأثيرٌ عليه، لذا ينبغي على المسلم أن يختار الصاحب الصالح الذي يقرّبه إلى الله ﷻ، والنبي ﷺ يقول: «الرَّجُلُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ، فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ»[712].

المطلب الثالث: التثبت عند نقل الأخبار

لا شك أنّ للشائعات دورًا خطيرًا في إثارة الفتن والقلاقل في المجتمع؛ فهي تعمل على نشر الأكاذيب والترويج للباطل، وإثارة الشحناء والبغضاء بين المسلمين، والتفرقة بينهم.

ولأنّ كل مجتمع لا يخلو من مثل هذه الشائعات التي حدثت حتى في عهد النبي ﷺ في قصة الإفك، فإنّ ابن عثيمين لم يُغفِل هذه الظاهرة في تفسيره؛ بل نزّل الآيات التي ورد فيها هذا المعنى على واقعه، منها قول الله ﷻ: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾﴾[713]، فبعد تفسيره لهذه الآية قال: "ما أكثر ما يقع هذا من الناس، وهذا يفيد أنّ الإنسان لا يقول قولًا إلا وله به علم، لا يكفي أن تقول قولًا لمجرد الظن، ولا لمجرد الوهم أو التخيل"[714]، واستدلّ على ذلك بقول الله ﷻ: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ

---

[711]. العثيمين. 1426هـ. *تفسير القرآن الكريم (سورة آل عمران)*. ج.2. ص.84.

[712]. أبو داود. د. ت. *سنن أبي داود*. كتاب الأدب. باب من يؤمر أن يجالس. ج.4. ص. 259. رقم الحديث: 4833. والترمذي. 1998م. *سنن الترمذي*. أبواب الزهد. ج.4. ص. 176. رقم الحديث: 2378. وإسناده جيد كما قال الأرناؤط في تخريج المسند. مسند أحمد ط الرسالة. رقم الجزء 13. ص 398. رقم الحديث: 8028.

[713]. القرآن. النور 24: 15.

[714]. العثيمين.1436هـ. *تفسير القرآن الكريم (سورة النور)*. ص.84.

وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾[715]، وحذّر المسلم من قول ما ليس له به علم، بقوله: "إذن لا تقل ما ليس لك به علم، ولا تتبع ما ليس لك به علم، وهذه تربية من الله ﷻ تفيد أنّ الإنسان يتثبّت فيما يقول؛ ليكون قوله معتبرًا؛ وليسلم من إثم القول بلا علم"[716].

ومجتمعنا اليوم في حاجة ماسة لمثل هذا التنزيل الصريح الصحيح للآيات؛ مع سهولة انتشار الشائعات عبر وسائل التواصل الاجتماعي، والتي أصبح لها خطر على المجتمع؛ فهي تؤثر على أمنه واستقراره، وتُسهم في تفكيك العلاقات الاجتماعية، من خلال نشر الأكاذيب، فكثير من الناس بمجرد قراءته للخبر ينشره دون تثبُّت، والله ﷻ يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ﴿٦﴾[717].

المطلب الرابع: الخلاف في الرأي لا يدعو للقطيعة

إنّ اختلاف الآراء سنة من سنن الله ﷻ في الكون، وهو ناتج عن اختلاف العقول والأفهام، "ولا يزال الناس مختلفين في أديانهم وأهوائهم على أديان وملل وأهواء شتى، إلا من رحم ربك"[718]. ويشغل الخلاف في عصرنا الحاضر بال كثير من الناس، خاصة وأنّ منصات التواصل الاجتماعي سهّلت على كثير من أفراد المجتمع الرد على المخالف –الذي يختلف معه في آرائه وأفكاره– فأصبح المجتمع بحاجة شديدة إلى من يوجّهه، ويذكّره بحال السلف في التعامل مع المخالف؛ فقد كان يعذر بعضهم بعضًا فيما اختلفوا فيه؛ حتى لا يكون هذا الخلاف سببًا للنزاع والمخاصمة، بل تبقى المودّة والأخوّة الإسلامية قائمة وثابتة[719].

---

[715]. القرآن. الإسراء 17: 36.

[716]. العثيمين. 1436هـ. *تفسير القرآن الكريم (سورة النور)*. ص.84.

[717]. القرآن. الحجرات 49: 6.

[718]. الطبري. 2001م. *جامع البيان عن تأويل آي القرآن*. ج.12. ص.636.

[719]. الطريقي. عبد الله إبراهيم. د. ت. *فقه التعامل مع المخالف*. الرياض: دار الوطن. ص.51.

وكان ابن عثيمين يدرك خطر ذلك، فبيّن لنا كيفية التصرّف عند وقوع الخلاف، وذلك عند قول الله ﷻ: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ﴾[720]، فأشار إلى أنّ الخلاف يقع كثيرًا بين أهل العلم، وقد اختلف الصحابة ﷺ في الاجتهاد المؤدي إلى التفرق في الأقوال، لكن هذا الاختلاف لم يؤدِّ إلى اختلاف القلوب، بل كان يحب بعضهم بعضًا حتى وإن وقع الخلاف.

وقارن بين عصر الصحابة وبين بعض طلاب العلم اليوم فربما يخالفه أخوه في الرأي؛ -مع أنه لا يعلم الصواب عنده أو عند أخيه- فيبغضه ويكرهه ويهجره، وربما يلاقيه فاسق فيسلم عليه، ويلاقيه أخوه الذي خالف في الرأي فلا يسلم عليه، وما ذاك إلا من الشيطان[721].

واستنبط من الآية السابقة تحريم التفرّق في القلوب حتى وإن تفرقت الأقوال، وأنّ الإنسان العاقل ينبغي عليه إذا خالفه أخوه في رأيه بمقتضى الدليل عنده أن يكون ذلك أدعى إلى قوة المحبة له؛ لأنه لم يحابِهِ في ذات الله، بل قدّم محبة الله، فلا تزيده تلك المخالفة المبنية على الاجتهاد إلا محبة لأخيه وتمسّكًا به[722].

وهذا يقع كثيرًا بين طلاب العلم كما قال الإمام الذهبي أنّ كلام الأقران في بعضهم لا ينجو منه إلا من عصم الله، وما عُلم أنّ عصرًا من الأعصار سلِم أهله من ذلك، سوى الأنبياء والصديقين[723]، ويُلحظ ذلك في عصرنا الحالي، المقاطعة والمشاحنة بين طلاب العلم، لاختلافهم بالرأي، والمقصود من الاختلاف هنا هو الاختلاف في الفروع، وليس في الأصول والثوابت التي ينبغي أن يتفق عليها جميع المسلمين، فاستخدم ابن عثيمين العقل والنقل في إقناع المخالف للآية؛ حيث نقل واقع الصحابة وما كانوا عليه من

---

720. القرآن. آل عمران 3: 103.

721. العثيمين. 1426هـ. *تفسير القرآن الكريم (سورة آل عمران)*. ج.1. ص.602.

722. المرجع نفسه. ص.602.

723. الذهبي. شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد. 1963. *ميزان الاعتدال في نقد الرجال*. بيروت: دار المعرفة للطباعة والنشر. ج.1. ص.111.

محبة رغم اختلاف الآراء، واستخدم أسلوب الإقناع العقلي لمن تفرّقت قلوبهم بسبب اختلاف آرائهم، وفي هذا التنزيل علاج عملي لهذا الخلاف، ونحن بحاجة لمن يأخذ بأيديهم، لحلّ هذه المشكلة، ومن الحلول أيضًا: تذكيرهم بالعمل بالعلم، والبعد عن التعصّب المقيت، وتربيتهم على منهج الوسطية والاعتدال.

المطلب الخامس: حقوق الزوجة

لُوحظ في مجتمعنا الحالي بعض الأزواج يحتقرون زوجاتهم، ويقصرون في حقوقهن، فأراد ابن عثيمين ﷺ معالجة هذه المشكلة الاجتماعية من القرآن، فلما فسّر قول الله ﷻ: ﴿وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمۡ أَو وَّزَنُوهُمۡ يُخۡسِرُونَ ۝٣﴾[724]، ذكر أنّ معنى يُخسرون: يستوفون حقهم كاملًا، وينقصون حق غيرهم، وضرب مثلًا لذلك بالزوج الذي يريد من زوجته أن تعطيه حقه كاملًا، ولا تتهاون في شيء من حقه، لكنه عند أداء حقها يتهاون ولا يعطيها الذي لها. ثم بيّن أنّ هذا يقع كثيرًا في المجتمع فقال: وما أكثر ما تشتكي النساء من هذا الطِّراز من الأزواج؛ حيث إنّ كثيرًا من النساء يريد منها الزوج أن تقوم بحقه كاملًا، لكنه هو لا يعطيها حقها كاملًا، ثم وجّه لهم نصيحة فقال: "فنصيحتي لهؤلاء الذين يفرّطون في حق أزواجهم أن يتقوا الله ﷻ، فإنّ النبي ﷺ أوصى بذلك في أكبر مَجمَع شهده العالم الإسلامي في حياة الرسول ﷺ في يوم عرفة في حجة الوداع، قال: «فَاتَّقُوا اللهَ فِي النِّسَاءِ، فَإِنَّكُمْ أَخَذْتُمُوهُنَّ بِأَمَانِ اللهِ، وَاسْتَحْلَلْتُمْ فُرُوجَهُنَّ بِكَلِمَةِ اللهِ»[725]، فأمرنا أن نتقي الله تعالى في النساء"[726].

ويتجلّى من تنزيله السابق أنّ هناك علاقة بين قاعدة: (العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب) ومسألة تنزيل الآيات على الواقع، فسبب نزول هذه السورة كما رواه ابن عباس قَالَ: «لَمَّا قَدِمَ نَبِيُّ اللهِ

---

724. القرآن. المطففين 83: 1-3.

725. مسلم. د. ت. *صحيح مسلم*. كتاب الحج. باب حجة النبي ﷺ. ج. 2. ص.890. رقم الحديث: 1218.

726. العثيمين. 2003م. تفسير القرآن الكريم (جزء عم). ص. 94.

ﷺ الْمَدِينَةَ، فَكَانُوا مِنْ أَخْبَثِ النَّاسِ كَيْلًا، فَأَنْزَلَ اللهُ ﷻ ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ فَحَسَّنُوا الْكَيْلَ بَعْدَ ذَلِكَ»[727].

لكن التطفيف لفظ عام ويتضمن صورًا عديدة، كما قال الخطيب الشربيني: "وتفاقم الإثم في التطفيف وفيما كان في مثل حاله من الحيف، وترك القيام بالقسط والعمل على السوية، والعدل في كل أخذ وإعطاء، بل في كل قول وعمل"[728].

والملاحظ في المجتمع وقوع كثير من المشاكل بين الزوجين، وبعضها يُفضي إلى التباغض والتنافر بينهما، ولذلك شرع الإسلام في مثل هذا الحال الطلاق، لكنّ بعض الأزواج يُكرِهون زوجاتهم على البقاء معهم مع وجود الضرر، وذكر ذلك ابن عثيمين فقال: "فإنّ بعض الناس –والعياذ بالله– يُكرِهونهن على البقاء أو يعضُلونهن لأجل أن يفتدين ويسلّمن مبالغ من المال من أجل أن يطلقها، كل هذا حرام، والذي ينبغي إذا رأيت من الزوجة أنها لا تستطيع أن تعيش معك عيشة سعيدة فينبغي لك أن تطلقها"[729].

وهذا التنزيل الصريح للآيات يدلّ على أن ابن عثيمين وظّف تفسير القرآن الكريم في حل مشاكل المجتمع، ومنها مشاكل الأسرة، مبيّنًا دور القرآن الكبير في إصلاح حالهم، ويظهر من هذا التنزيل ما كان في عصره من ظلم بعض الأزواج لزوجاتهم، والذي لا يزال إلى يومنا هذا.

خلاصة المبحث:

1- نزّل ابن عثيمين الآيات على الواقع تنزيلًا صريحًا، وتنوّع بين التنزيل الكلي والجزئي للآية.

---

727. النسائي. 2001. *السنن الكبرى*. كتاب التفسير. باب سورة المطففين. ج.10. ص.327. رقم الحديث: 11590. وهو حديث حسن حسنه الألباني والأرناؤط.

728. الخطيب الشربيني، شمس الدين، محمد بن أحمد. 1285هـ. *السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير*. القاهرة: مطبعة بولاق الأميرية. ج.4. ص.502.

729. العثيمين. 1436هـ. *تفسير القرآن الكريم (سورة الروم)*. ص.112- 113.

2- استدلّ ابن عثيمين بالآيات القرآنية، وبالأحاديث النبوية على تنزيله للآيات على الواقع.

3- كان تنزيل ابن عثيمين يبدأ بعرض المشكلة التي يعاني منها المجتمع، ومن ثَمّ يستنبط علاجها من خلال الآيات.

4- استخدم ابن عثيمين الإقناع العقلي في تنزيل الآيات؛ لما له من تأثير في الاستجابة.

UNIVERSITI SAINS ISLAM MALAYSIA
جامعة العلوم الإسلامية الماليزية
ISLAMIC SCIENCE UNIVERSITY OF MALAYSIA

المبحث الثامن

تنزيل الآيات على الواقع في القضايا السياسية

يُعدّ الدين الإسلامي "منهاجًا كاملًا للحياة، بما وضع من مبادئ، وما أصّل من قواعد، وما سنّ من تشريعات، وما بيّن من توجيهات، تتصل بحياة الفرد، وشؤون الأسرة، وأوضاع المجتمع، وأُسس الدولة، وعلاقات العالم"[730].

ويتضح ذلك جليًا في آيات القرآن الكريم، الذي جعله الله ﷻ دستورًا لهذه الأمة، وقد نزّل ابن عثيمين الآيات المتعلقة بالقضايا السياسية على واقعنا المعاصر، ذكرتها ضمن المطالب الآتية:

المطلب الأول: حكم القوانين الوضعية

صرّح ابن عثيمين بأنّ تشريع القوانين الوضعية المخالفة لما أنزل الله كفر أكبر، فقال: "مَن لم يحكم بما أنزل الله استخفافًا به، أو احتقارًا له، أو اعتقادًا أنّ غيره أصلح منه، وأنفع للخلق فهو كافر كفرًا مُخرجًا عن الملة[731]، ومِن هؤلاء مَن يضعون للناس تشريعات تخالف التشريعات الإسلامية لتكون منهاجًا يسير

---

730. القرضاوي. يوسف. 2007. *الدين والسياسة تأصيل وردّ شبهات*. ص. 78.

731. اختلف العلماء في حكم من لم يحكم بما أنزل الله، هل هو كافر كفر يخرج من الملة، أو كفر لا يخرج من الملة، وقد رُوي عن ابن عباس ﷺ أنه ليس بكفر ينقل عن الملة، بل إذا فعله فهو به كافر، وليس كمن كفر بالله واليوم الآخر، انظر: البغوي. 1420 هـ. *معالم التنزيل في تفسير القرآن*. ج.2. ص. 55. وقال أيضًا أنّ للآية تأويلان: أحدهما معناه: ومن لم يحكم بما أنزل الله ردا وجحدا فأولئك هم الكافرون. والثاني معناه: ومن لم يحكم بكل ما أنزل الله فأولئك هم الكافرون، والكافر هو الذي يترك الحكم بكل ما أنزل الله دون المسلم. انظر: السمعاني. أبو المظفر، منصور بن محمد. 1997. *تفسير القرآن*. الرياض: دار الوطن. ج.2. ص. 42. وقال السعدي: فالحكم بغير ما أنزل الله من أعمال أهل الكفر، وقد يكون كفرا ينقل عن الملة، وذلك إذا اعتقد حله وجوازه. وقد يكون كبيرة من كبائر الذنوب، ومن أعمال الكفر قد استحق من فعله العذاب الشديد. انظر: السعدي. 2000. *تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان*. ص.232. ونقل الشنقيطي عن ابن مسعود والحسن أنّ الآية عامة في كل من لم يحكم بما أنزل الله من المسلمين، واليهود، والكفار، أي معتقدا ذلك ومستحلا له، فأما من فعل ذلك، وهو معتقد أنه مرتكب محرم فهو من فساق المسلمين وأمره إلى الله تعالى إن شاء عذبه، وإن شاء غفر له. انظر: الشنقيطي. 1995. *أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن*. ج.1. ص. 406.

الناس عليه"[732]، وذكر ذلك عند تفسيره لقول الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ٥٩﴾[733]، فردّ على من حكّم القوانين الوضعية، وظنّ أنّ الأمة تصلح بها، وبيّن أنّ هذه القوانين الوضعية منها ما كان صالحًا موافقًا للكتاب والسنة فهذا صلاحه ليس لذاته؛ بل لموافقته للكتاب والسنة، ولا يصحّ أن نجعل هذا الحكم من القانون الوضعي، بل هذا الحكم هو حكم الكتاب والسنة، أما مَن تحاكم إلى غير الله ورسوله فهو كافر[734].

وهو بهذا التنزيل يبيّن كفر من حكّم القوانين الوضعية، [735] وكان ﵀ يفرّق بين الحُكم والعين، فلم يكفّر أحدًا بعينه، بل ذكر حكمًا عامًا.

ومسألة تكفير من لم يحكم بما أنزل الله فيها خلاف ذكرته في الحاشية، وأنا أميل إلى من قال أنّ من حكم بغير ما أنزل الله تهاونًا فلا يخرج من الملة، وهو مخالف لما قاله ابن عثيمين في تنزيل الآية.

وبيّن ابن عثيمين أثر تطبيق القوانين الوضعية عند تفسيره لقول الله ﷻ: ﴿لَن يَضُرُّوكُمۡ إِلَّآ أَذٗىۖ وَإِن يُقَٰتِلُوكُمۡ يُوَلُّوكُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ١١١﴾[736]، فوعد الله للمؤمنين بالنصر في

---

[732]. العثيمين. 1413هـ. *مجموع فتاوى ورسائل فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين*. المملكة العربية السعودية: دار الوطن. ج. 2. ص.143.

[733]. القرآن. النساء 4: 59.

[734]. العثيمين. 1435هـ. *تفسير القرآن الكريم (سورة النساء)*. ج.1. ص.458.

[735]. هذا التنزيل يوافق ما قاله الإمام ابن كثير، بأنّ من ترك الشرع المحكم المنزل على محمد بن عبد الله خاتم الأنبياء وتحاكم إلى غيره من الشرائع المنسوخة كفر بإجماع المسلمين. انظر: ابن كثير. 1999. *تفسير القرآن العظيم*. ج.13. ص. 139. وقال: الشنقيطي حيث قال: "وأما النظام الشرعي المخالف لتشريع خالق السماوات والأرض فتحكيمه كفر بخالق السماوات والأرض" انظر: الشنقيطي. 1995. *أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن*. ج.3. ص. 260.

[736]. القرآن. آل عمران 3: 111.

هذه الآية يتحقق عندما يتمسكون بدينهم، أما مَن خالف هذه الآية واعتقد أنّ الدين الإسلامي دين رجعية وتخلّف، وبدّله بغيره مِن القوانين الرجعية الوضعية، فهؤلاء لا يُكتب لهم النصر، ويضرونهم الأعداء بالأذى القولي والفعلي والاقتصادي، ولذلك اليهود الآن يفعلون بنا الأفاعيل[737].

ويؤيّد ما قاله في هذا التنزيل قول الحق ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ۝٧﴾[738]، والمعنى: إن تنصروا دين الله تعالى ينصركم على عدوكم، ويثبت أقدامكم في القيام بحقوق الإسلام ومجاهدة الكفار، لتكون كلمة الله هي العليا، وكلمة المشركين هي السفلى[739]، فالجزاء من جنس العمل، ومن خالف شريعة الله ﷻ وحكم بغير ما أنزل فلا شك أنه سيدفع ضريبة ذلك في الدنيا قبل الآخرة، ومن آثار ذلك تسلط الأعداء عليهم، وقد نقل ابن كثير خبر المعظّم– أمير دمشق سنة 615هـ– عندما أخذ ضمانًا على الخمور والمغنيات واعتذر في ذلك بأنه إنما صنع هذا المنكر لقلة الأموال على الجند، واحتياجهم إلى النفقات في قتال الفرنج، فعلّق على ذلك بقوله: "وهذا من جهله وقلة دينه وعدم معرفته بالأمور، فإنّ هذا الصنيع يديل عليهم الأعداء وينصرهم عليهم، ويتمكّن منهم الداء، ويثبط الجند عن القتال، فيولّون بسببه الأدبار، وهذا مما يدمّر ويخرب الديار ويديل الدول، كما في الأثر: (إذا عصاني من يعرفني سلطت عليه من لا يعرفني) وهذا ظاهر لا يخفى على فطن"[740].

المطلب الثاني: الشورى

"الشورى في النظام الإسلامي منهج رباني وليست من نافلة القول، فقد أعلمنا الحق ﷻ أنّ الشورى

---

737. ابن عثيمين. 1426هـ. *تفسير القرآن الكريم (سورة آل عمران)*. ج.2. ص.56.

738. القرآن. محمد 47: 7.

739. المراغي. أحمد بن مصطفى. 1946. *تفسير المراغي*. مصر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبي وأولاده. ج.26. ص. 52.

740. ابن كثير. أبو الفداء إسماعيل بن عمر. 1988. *البداية والنهاية*. بيروت: دار إحياء التراث العربي. ج.13. ص. 97.

في النظام الإسلامي دين يجب الأخذ به"[741]، قال سبحانه: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾[742]، وهي أمر في غاية الأهمية؛ لكيلا يكون هناك استبداد للحاكم، وللاستفادة من ذوي الخبرة في المجتمع المسلم.

وعند تفسير ابن عثيمين لقول الله ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾﴾[743]، بيّن أنّ الأمر العام لا بدّ فيه من التشاور، واستثنى من ذلك ما ظهرت مصلحته لولي الأمر، فإنّه لا حاجة إلى أن يُشاوِر؛ لأنّ التشاور يكون عند التردّد، أما مع ظهور المصلحة فلا حاجة للمشاورة؛ لأنّ المشاورة حينئذ لا تزيد الأمر إلا إشكالًا، واستدلّ على ذلك بفعل عمر ابن الخطاب، الذي كان من أشدّ الناس اهتمامًا بالرعية، ولكنه كان لا يشاور إلا إذا أشكل عليه الأمر[744].

والشورى تكون فيما لا نصّ فيه، ومحلها بين العلماء والمجتهدين، وهذا ما فعله عمر بن الخطاب ﷺ فقد كان يجمع كبار الصحابة ليستشيرهم في الأمور المستجدّة التي كثرت في عصره نتيجة لامتداد رقعة الإسلام، إلى بلاد ذات نظم وحضارات مختلفة، مما ولّد مشكلات جديدة احتاجت إلى اجتهاد واسع[745]،

وفصّل في كيفية الشورى عند تفسيره لقول الله ﷻ: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾[746]، فأشار إلى أنّ النبي ﷺ لم يكوّن مجلسًا للشورى يرجع إليه؛ لأنه

---

741. المهدي. حسين بن محمد. 2006. *الشورى في الشريعة الإسلامية*. الجمهورية اليمنية: وزارة الثقافة. ص.33.

742. القرآن. آل عمران 3: 159.

743. القرآن. الشورى 42: 38.

744. العثيمين. 1437هـ. *تفسير القرآن الكريم (سورة الشورى)*. المملكة العربية السعودية: مؤسسة السيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية. ص.288- 290.

745. العمري. أكرم ضياء. د. ت. *عصر الخلافة الراشدة*. السعودية: مكتبة العبيكان. ص. 100.

746. القرآن. آل عمران 3: 159.

إذا كُوِّن مجلس يُرجَع إليه ربما يبقى هذا المجلس دائمًا مع تغيّر أحوال أهله، ومع وجود أناس جُدد خير منهم، ولذا فإنّ على وليّ الأمر إذا نزلت به نازلة حينئذٍ يستشير مَن يرى أنه مؤهّل للشورى، ويتجدد له الرجال الذين يستشيرهم، ولا يبقى هذا المجلس الاستشاري يُرجع الأمر إليه دائمًا، واستدلّ على ذلك بعمل النبي ﷺ فقد كان يستشير أبا بكر وعمر ﷺ ويرى أنّ في رأيهما السداد والرشد، ولكنه لم يكن يستشيرهما في كل شيء، بل كان يستشير بقية الصحابة عمومًا[747].

ولم يصرّح ابن عثيمين في التنزيل السابق بما كان يدور في مجتمعه في موضوع الشورى الذي تأسس سنة 1345هـ، وكان له عدد من الأعضاء لا يتجاوزهم[748]، وكان يقتصر على مشاورتهم دون غيرهم من ذوي الخبرات الذين ربما يكونون أفضل منهم في الأمر الذي يقع فيه الشورى، ولذلك استدلّ بالسنة النبوية في تطبيق الآية، وكان تنزيله لها صحيحًا موافقًا لما جاء في السنة.

المطلب الثالث: صفات ولي الأمر

ذكر ابن عثيمين ﷺ صفاتٍ لولي الأمر عند تفسيره للقرآن، منها:

1- **القوة:** واستنبطها من قول الله ﷻ: ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾﴾[749] فذكر أنّ مدار العمل على صفتَي القوة والأمانة؛ لأنّ مَن ليس بقوي لا يُتقن العمل لضعفه، ومَن ليس بأمين لا يُتقن العمل أيضًا لخيانته، ثمّ ضرب مثلًا على ذلك بالأمير الذي تظهر فيه القوة وإن كان غير أمين، فهو أنفع للمجتمع

---

747. العثيمين. 1426هـ. *تفسير القرآن الكريم (سورة آل عمران)*. ج.2. ص.370- 371.

748. السماري. فهد بن عبد الله والجهيمي. ناصر بن محمد. 1422هـ. *المملكة العربية السعودية في عهد خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز آل سعود*. ص.59- 62.

749. القرآن. النمل 27: 39.

من أمير ضعيف أمين، أما القاضي فعلى العكس من ذلك، فالأمانة في حقه أظهر؛ لأنّه لن يقوم بتنفيذ الحكم، ثم قال: خصوصًا في عصرنا، فالآن التنفيذ لجهة الإمارة، فالقاضي يحكم فقط، فإذا كان أمينًا فهنا قصد الأمانة في القضاء أظهر من قصد القوة[750].

وذكر في تنزيله السابق أنّ عصرنا الحالي ينبغي أن تكون فيه صفة القوة من أهم صفات الأمير أو ولي الأمر، فهي مقدَّمَة على صفة الأمانة -في حال تعذّر اجتماعهما في شخص صالح للإمارة-؛ لأنّ "اجتماع القوة والأمانة في الناس قليل، فالواجب في كل ولاية الأصلح بحسبها"[751]، ويؤيّد ذلك حديث أبي ذر ﷺ قال: قلت: يا رسول الله، ألا تستعملني؟ قال: فضرب بيده على منكبي، ثم قال: «يَا أَبَا ذَرٍّ، إِنَّكَ ضَعِيفٌ، وَإِنَّهَا أَمَانَةُ، وَإِنَّهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ خِزْيٌ وَنَدَامَةٌ، إِلَّا مَنْ أَخَذَهَا بِحَقِّهَا، وَأَدَّى الَّذِي عَلَيْهِ فِيهَا»[752]، والقوة في كل ولاية بحسبها؛ فالقوة في إمارة الحرب ترجع إلى شجاعة القلب، وإلى الخبرة بالحروب، والقوة في الحكم بين الناس ترجع إلى العلم بالعدل الذي دلّ عليه الكتاب والسنة، وإلى القدرة على تنفيذ الأحكام[753].

2- **مراعاة المصلحة العامة**: واستنبطها من قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾﴾[754]، فقال: "مراعاة المصالح العامة في الشرع والقدر أمر معلوم، هذا بالنسبة للولاية والتدبير، فإذا كان واليًا على أمر يجب عليه أن يُراعي

---

750. العثيمين. 1436هـ. *تفسير القرآن الكريم (سورة النمل)*. ص.211.

751. ابن تيمية. أحمد بن عبد الحليم. 1418هـ. *السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية*. المملكة العربية السعودية: وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد. ص.15.

752. مسلم. د. ت. *صحيح مسلم*. كتاب الإمارة. باب كراهة الإمارة بغير ضرورة. ج.3. ص. 1457. رقم الحديث: 1825.

753. ابن تيمية. 1418هـ. *السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية*. ص.13.

754. القرآن. النور 24: 16.

المصالح، فتُقدَّم المصالح العامة في الشرع"[755].

ومراعاة المصالح العامة من أهم الصفات التي ينبغي أن يتصف بها الحاكم، أو ولي الأمر، [756]والمصالح العامة هي التي يعود نفعها على عامة المسلمين، كبناء المساجد والمدارس والطرقات، وكل المصالح التي تتعلق بالدين أو الدنيا[757].

3- **تنظيم الوقت**: واستنبط من الآية نفسها أيضًا صفة من صفات ولي الأمر، وهي: ترتيب وقته، فقال: "ينبغي للإنسان –خصوصًا المراد من أمير وقاضٍ وعالم ووجيه وغيره، أن يجعل له أوقاتًا محددة؛ حتى إنّ الناس يشعرون بأنّ هذا الرجل رجل منظّم، ويشعرون بأنّ الإنسان الفوضوي إن شاء جلس وإن شاء قام، أنه ليس بمنظّم، فلا يعتبرونه شيئًا"[758].

وتنظيم ولي الأمر وإدارته لوقته أمر في غاية الأهمية لتحقيق كفاءته ونجاحه، وتنظيم الوقت دليل على انضباطه في جميع أموره، ونحن في هذا العصر بحاجة إلى مثل هذا التنزيل؛ ليأخذ الرعية حقهم في الدخول على ولي الأمر، وليكون الوقت محددًا بالنسبة لهم.

وصفات ولي الأمر التي ذكرها ابن عثيمين كانت متناثرة في تفسيره، وإلا فإنّ ولي الأمر له صفات أخرى مثل: الذكورة، والعدالة، والعلم، والشجاعة، والحرية، وسلامة الحواس، والرأي المفضي إلى سياسة الرعية[759]، وغير ذلك.

---

755. العثيمين. 1436هـ. *تفسير القرآن الكريم (سورة النور)*. ص.89.

756. ابن المبرد. يوسف بن حسن بن أحمد. 2011. *إيضاح طرق الإستقامة في بيان أحكام الولاية والإمامة*. سوريا: دار النوادر. ص. 149، وانظر: ابن الأزرق. محمد بن علي بن محمد. د. ت. *بدائع السلك في طبائع الملك*. العراق: وزارة الإعلام. ج.1. ص. 216. وغيرهم.

757. الغزالي. أبو حامد محمد بن محمد. د. ت. *إحياء علوم الدين*. بيروت: دار المعرفة. ج. 2. ص. 140.

758. العثيمين. 1436هـ. *تفسير القرآن الكريم (سورة النمل)*. ص.212- 213.

759. النووي. أبو زكريا محيي الدين يحيى. 2005. *منهاج الطالبين وعمدة المفتين في الفقه*. دمشق: دار الفكر. ص.292. وانظر: الماوردي. د. ت. *الأحكام السلطانية*. ص.20.

المطلب الرابع: طاعة ولي الأمر

أوجب الإسلام طاعة ولاة الأمر، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾[760]؛ فبطاعتهم يحصل الأمن والاستقرار، وتستقيم الأمور، وتتحقق مصالح الدنيا والدين، و"تنحصر واجبات الإمام على كثرتها في واجبين: أحدهما إقامة الإسلام، والآخر إدارة شؤون الدولة في حدود الإسلام"[761]، ويجوز لوليّ الأمر أن يتدخل لتحقيق المصلحة العامة، فيجوز له منع المباح إذا أفضى إلى مفسدة عامة[762]، لكننا نرى فئة من الناس في المجتمع المسلم لا يتقبّلون ذلك، ويخالفون بعض القوانين التي يحددها ولاة الأمور للمصلحة العامة؛ خاصة تلك التي لم يرد فيها نص شرعي، وقد أشار إلى ذلك ابن عثيمين ﵀ عند تفسيره لقول الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾[763]، فذكّرهم بأنّ طاعة ولي الأمر واجبة، ثم قال: "فالمتمردون على ولاة الأمور يقولون: لا سمع ولا طاعة، هات دليلًا على أنّ هذا واجب، والمؤمنون يقولون: سمعًا وطاعة؛ لأننا لو لم نطعهم إلا في أمر ورد فيه الشرع بعينه، لكانت الطاعة ليست لهم، بل للأمر الشرعي"

وضرب لذلك مثلًا بمن لا يخضع لتنظيم المرور للطرقات، ويقول أين الدليل على ذلك؟ وأجابه بأنّ الآية هنا عامة في طاعة ولي الأمر، ويجب امتثال الأمر، حتى وإن لم يرَ الإنسان مصلحة في ذلك؛ لأننا لو جعلنا المصلحة مربوطة برأي كل واحد من الناس ما عملنا بمصلحة قط؛ لأنّ أهواء الناس مختلفة، فالرأي لولي الأمر قبل كل شيء، ومَن كان له رأي يرى أنّ فيه مصلحة، وجب عليه –من باب النصيحة– أن

---

760. القرآن. النساء 4: 59.

761. عودة. عبد القادر. 1981. *الإسلام وأوضاعنا السياسية*. بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع. ص. 246.

762. الدريني. فتحي. 1984. *الحق ومدى سلطان الدولة في تقييده*. بيروت: مؤسسة الرسالة. ط.3. ص. 111.

763. القرآن. النساء 4: 59.

يرفعه إلى ولي الأمر، ويقول: نحن نمتثل أمرك، ولكن نرى أنّ المصلحة في كذا، وبهذا يكون ناصحًا لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم[764].

ولعله ضرب مثالًا بمن لا يخضع لأنظمة الطرقات لكثرة الشباب الذين يتجاوزون السرعة المسموح بها مما يؤدي إلى الحوادث المسببة للوفاة، وهذا يقع كثيرًا في المجتمع، فنبّه هؤلاء على وجوب الطاعة لأنّ في هذه الأنظمة مصلحة لهم، وكذلك باقي الأنظمة مما قد يخفى على الإنسان مصلحتها. فتكون طاعته فيما فيها واجبة؛ لأنّ"الإمام إذا أمر بمندوب أو مباح وجب"[765].

أما إذا كان ما أمر به داخل في دائرة المعصية فحينئذ لا تجب طاعته، ويدلّ على ذلك حديث رسول الله ﷺ: «السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ حَقٌّ مَا لَمْ يُؤْمَرْ بِالْمَعْصِيَةِ، فَإِذَا أُمِرَ بِمَعْصِيَةٍ، فَلاَ سَمْعَ وَلاَ طَاعَةَ»[766].

فطاعة ولي الأمر معلَّقة أو مشروطة بطاعته لله ورسوله ﷺ؛ إذ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق

المطلب الخامس: إمارة المرأة

عند تفسيره لقوله سبحانه: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةٗ تَمۡلِكُهُمۡ وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ ٢٣﴾[767]، قال: "في شرعنا لا يجوز أن تُولّى المرأة على الرجال، فلا يمكن أن تكون ملكة، ولا

---

764. العثيمين. 1435هـ. *تفسير القرآن الكريم (سورة النساء)*. ج.1. ص.453.

765. المباركفوري. أبو العلا محمد عبد الرحمن. د. ت. *تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي*. بيروت: دار الكتب العلمية. ج.5. ص.298.

766. البخاري. 1422هـ. *صحيح البخاري*. كتاب الجهاد والسير. باب السمع والطاعة للإمام. ج.4. ص.49-50. رقم الحديث: 2955. ومسلم. *صحيح مسلم*. كتاب الإمارة. باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية. ج3. ص. 1465. رقم الحديث: 1839.

767. القرآن. النمل 27: 23.

يمكن أن تكون أميرة، ولا يمكن أن تكون وزيرة، ولا يمكن أن تكون قاضية، كل هذا لا يجوز"[768]، واستدلّ بحديث النبي ﷺ «لَنْ يُفْلِحَ قَوْمٌ وَلَّوْا أَمْرَهُمُ امْرَأَةً»[769].

وقوله بعدم جواز تولي المرأة للقضاء يوافق ما قاله بعض الفقهاء، فقد ذهب مالك والشافعي إلى أنها لا يجوز أن تلي شيئًا من أمور المسلمين[770]، وقال القرطبي: "وأجمعوا على أن المرأة لا يجوز أن تكون إماما"[771]؛ لأنّ عبء المنصب يتطلب قُدرة كبيرة لا تتحملها المرأة غالبًا، ولا تتحمل المسؤولية المترتبة على هذه الوظيفة في السلم والحرب والظروف الخطيرة[772]، ومنهم من قال بجواز ولاية المرأة على الإطلاق[773]، وذهب أبو حنيفة إلى أنه يجوز أن تلي القضاء فيما تقبل شهادتها فيه[774].

ومسألة ولاية المرأة من المسائل الخلافية بين العلماء ولكل فريق أدلته، وردّ كل فريق على الفريق

---

768. العثيمين. 1436هـ. *تفسير القرآن الكريم (سورة النمل)*. ص. 149.

769. البخاري. 1422هـ. *صحيح البخاري*. كتاب المغازي. باب كتاب النبي ﷺ إلى كسرى وقيصر. ج.6. ص.8. رقم الحديث: 4425.

770. استدل المانعون بحديث: «لَنْ يُفْلِحَ قَوْمٌ وَلَّوْا أَمْرَهُمُ امْرَأَةً»، وقالوا أنّ هذا المنع شامل لجميع الولايات، والأنوثة وحدها هي العلة في منع قضاء المرأة، وذلك لعجز رأيها، وقلة عقلها، ولذلك لم يولِّ النبي ﷺ امرأة قضاء ولا ولاية بلد، ولا أحد من خلفائه. انظر: ابن قدامة. 1968. *المغني*. ج.10. ص.36. المناوي. زين الدين محمد. 1356. *فيض القدير شرح الجامع الصغير*. مصر: المكتبة التجارية الكبرى. ج.5. ص.303.

771. القرطبي. 1964م. *الجامع لأحكام القرآن*. ج.1. ص.270.

772. الزحيلي. وَهْبَة بن مصطفى. د. ت. *الفِقْه الإسلامي وأدلَّته*. دمشق: دار الفكر. ط.4. ج.8. ص. 6179.

773. استدل هؤلاء بقول ابن حزم بجواز أن تلي المرأة الحكم، وقد روي عن عمر بن الخطاب: أنه ولى الشفاء امرأة من قومه السوق. وردّ على حديث: «لَنْ يُفْلِحَ قَوْمٌ وَلَّوْا أَمْرَهُمُ امْرَأَةً» أنه في الأمر العام الذي هو الخلافة، وقال أيضًا: أنه لم يأت نص من منعها أن تلي بعض الأمور. انظر: ابن حزم. أبو محمد علي بن أحمد. د. ت. *المحلى بالآثار*. بيروت: دار الفكر. ج.8. ص.527 -528، وكذلك بأنّ ملكة سبأ كانت امرأة، وكانت ولايتها عامة، وذُكر ذلك في القرآن، واستدلوا كذلك بخروج عائشة أم المؤمنين ﵂ يوم الجمل، وبتولي شجرة الدر للحكم. انظر: أنور. حافظ محمد. 1420. *ولاية المرأة في الفقه الإسلامي*. الرياض: دار بلنسية للنشر والتوزيع. ص.140-155.

774. الرجراجي. أبو الحسن علي بن سعيد. 2007. *مَنَاهِجُ التَّحصِيل ونتائج لطائف التَّأْوِيل في شَرحِ المَدَوَّنة وحَلّ مُشكِلاتها*. بيروت: دار ابن حزم. ج.8. ص.61. وانظر: البغدادي. القاضي أبو محمد عبد الوهاب. 1999. *الإشراف على نكت مسائل الخلاف*. بيروت: دار ابن حزم. ج.2. ص. 956.

الآخر، ولو ذكرنا ذلك هنا لطال بنا المقام، وقد كُتب في ذلك أبحاثًا يمكن الرجوع إليها[775].

وعند تفسيره لقول الله ﷻ: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِي ٱلۡحِلۡيَةِ وَهُوَ فِي ٱلۡخِصَامِ غَيۡرُ مُبِينٖ ١٨﴾[776] ذكر أنّ المرأة إذا تولّت على الرجال وأفلحت فإنّ فلاحها يكون نسبيًا، أو بمعونة الرجال، فقال: "وإذا نظرنا إلى الواقع فهل المرأة التي تتولى أمور الرجال هل تفلح؟ الجواب: إن أفلحت فذلك بمعونة الرجال، أو فلاح نسبي؛ يعني: امرأة مثلًا تكون رئيسة وزارة، لن يفلح قومها إلا بمساندة الرجال لها، هذه واحدة، أو يقال: هو فلاح نسبي، فلو تولى غيرها من الرجال؛ لكان ذلك أفلح لهم"[777]، وما قاله ابن عثيمين أنّ فلاح المرأة يكون بمعونة الرجال؛ يُردّ عليه بأنّ هذا لا يختص بالمرأة فقط؛ بل هو مطلوب من الرجال الملوك أيضًا أن يحكموا شعوبهم بالشورى، امتثالًا لقول الله ﷻ: ﴿وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ﴾[778]، وفي عصرنا الحالي يوجد دستور لكل دولة يجب على الجميع الرّجوع إليه، وفيه السُّلطات الثلاث، سلطة تنفيذية، وسلطة تشريعية، وسلطة قضائية، ورئيس الدولة ليس له إلا السلطة التنفيذية، فحتمًا سيكون حكمهم بمساعدة غيرهم.

وابن عثيمين بهذا التنزيل للآيات يشير إلى نتائج ولاية المرأة، وأنها لا تصلح للولاية مهما ظهر لنا من فلاح لها؛ لكونه ناقصًا، و"لأن فيها من طلب الرأي وثبات العزم ما تضعف عنه النساء، ومن الظهور في مباشرة الأمور ما هو عليهن محظور"[779].

---

[775] منها بحث أنور. حافظ محمد. 1420هـ. *ولاية المرأة في الفقه الإسلامي*. الرياض: دار بلنسية. وكتاب: التاج. عبد الملك حسين. 2019. المرأة والولاية في ضوء الشريعة وشهادة الواقع. وكتاب: الحاج. محمد أحمد. 1989. حكم تولي المرأة الإمامة الكبرى والقضاء أو أن تكون وزيرة. جدة: دار المطبوعات الحديثة.

[776] القرآن. الزخرف 43: 18.

[777] العثيمين. 1436هـ. *تفسير القرآن الكريم (سورة الزخرف)*. ص.88.

[778] القرآن. آل عمران 3: 159.

[779] الماوردي. أبو الحسن علي بن محمد. د. ت. *الأحكام السلطانية*. القاهرة: دار الحديث. ص.58.

خلاصة المبحث:

1- كان أغلب تنزيل ابن عثيمين للآيات على الواقع في القضايا السياسية صريحًا؛ يصرّح فيه بما يقع في عصرنا الحالي.

2- استشهد في تنزيله للآيات بالحديث النبوي، وضرب أمثلة من الواقع.

3- اشتمل بعض تنزيله للآيات على الرد على مَن خالف القرآن، كالذين يحكّمون القوانين الوضعية، وصرّح بأنّ ذلك كفرٌ.

4- كان تنزيله للآيات صحيحًا موافقًا لما جاء في الكتاب والسنة.

UNIVERSITI SAINS ISLAM MALAYSIA
جامعة العلوم الإسلامية الماليزية
ISLAMIC SCIENCE UNIVERSITY OF MALAYSIA